
عدالة السماء
قصصٌ هادفةٌ مِنَ الواقع
واءُ الركن
محمود شيت خطاب
دار الأنوار للمطبوعات - بغداد

عدالة السماء

قصص هادفة من الواقع

اللواء الركن
محمود شيت خطاب



بغداد ١٩٧٨

الإهداء

إلى روح زوجتي رفيعة ابراهيم الكرخية

كنتِ ورائي في عمل كل خيرٍ، تدفعيني إليه وتفرحين به وتشجعيني عليه.

وكنتِ سيفي الذي أنازل به الأضداد، وهذا السيف اليوم قد نبا.

وكنتِ الجواد الذي أصاول به الأنداد، وهذا الجواد اليوم قد كبا.

وكنتِ النور الذي يهديني إلى الحق، وهذا النور اليوم قد غبا.

لم يبقَ لي بعدكِ غير رحمة الله، والأمل في لقائكِ في رحاب الله.

فإلى روحكِ الطاهرة في جنات عدن، أهدي أجر هذا الكتاب.

عليكِ رحمة الله ورضوانه، وإنا لله وإنا إليه راجعون

محمود شيت خطاب

القاهرة في ٦ ذو الحجة ١٣٩١ هـ
٢٢/١/١٩٧٢ م

مقدمة الطبعة الخامسة

كنت في مصيف (الزبداني) سنة ١٦٧٣ ، وكان بالقرب من المصيف معسكر للشباب ، فدعاني قائده الى زيارة المعسكر .

وهناك في المعسكر ، وجدت القائمين على رعاية الشباب ، قد لقنوا تمثيلية هادفة ، فشهدت التمثيلية من من شهدها ، فأذا بها قصة من قصص : عدالة السماء .

وحدثني أحد الخطباء ، أنه ينقل قصص عدالة السماء ، ويحدث بها أصحابه في خطبه ، لتكون لهم عبرة من العبر .

وما سمعته من هذا الخطيب ، تكرر سماعه من كثير من الناس .

وقبل ايام حدثني شقيقي ، بأنه سمع احدى الاذاعات المسموعة ، تنقل للناس قصص عدالة السماء .

وكنت أظن أنها صادفت هوى في نفوس المتدينين فقط ،

ولكنني علمت بأنها صادفت هوى في نفوس غير المتدينين •

فقد استاذنتني مجلة لنشر عدالة السماء تباعا ، فأذنت لها بذلك بدون قيد او شرط ، بالرغم من نشر قصص عدالة السماء في مجالات أخرى قبل سنوات ، وصدورها مجموعة في كتاب خاص • ولكن الناس أقبلوا على قراءتها بلهفة وشوق في المجلة التي نشرتها مجددا ، وقد سمعت كثيرا من الناس الذين صادفتهم يزعمون أنهم أقبلوا على قراءتها مع من يعولون ، وذكر لي أحد أعضاء المجمع العلمي العراقي ، أنه يقرأ القصص في تلك المجلة ، وينتظر نشرها لقراءتها وحمل أولاده وأهله على قراءتها مع أنه قرأها قبل اليوم مرات •

وقصص عدالة السماء كلها من الواقع ، شهدت وقائعها وعشت أحداثها ، ولم انفق وقتا طويلا في كتابتها ، بل كنت أكتبها على رسلي ، ولم انفق في كتابتها كلها عشر الوقت الذي أنفقته في كتابة سيرة قائد واحد من قادة الفتح ، وكان يطالعني سؤال تردد على مسامع كثير من القراء الذين صادفتهم ، ومن الذ ين لم أصادفهم أبدا فحمل الى البريد تساؤلهم : ماسر اقبال الناس على قراءة قصص عدالة السماء اقبالا شديدا؟ وماسر تكرر نشرها في المجالات وفي كتاب تعددت طبعاته العلنية وطبعاته المزورة ؟ وماسر ترجمتها الى عدد من اللغات ، عرفت منها

التركية والاوردية واليوغسلافية ، كما أخبرني علماء من تركيا والهند والباكستان ويوغسلافيا ؟

والاهم من كل ذلك ، ما السر في تأثر الناس بأحداثها وترديدهم لها في كل مناسبة بالاذاعة وأجهزة الاعلام العربية وغير العربية ؟ وما سر اقبال الناشرين عليها وحرصهم على نشرها ؟

وعلى هذا التساؤل الذي يعتبره المتسائلون سرا ، ولا أعتبره كذلك ، لا أملك الا جوابا واحدا في كلمة واحدة ، هو : الصدق .

لقد اشتعل رأسي شيبا ، فكان خلاصة ما تعلمته من الحياة ، ان الصدق وحده ، هو الذي يؤدي الى كل خير في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، فمن أراد الخير كله لنفسه قبل غيره ، فعليه بالصدق .

ان الكلمة الصادقة هي التي تفيد الناس ، لانها تؤثر فيهم ، وهي التي تمكث في الارض ولا تذهب جفاء .

والكلمة الصادقة اذا أراد بها كاتبها أو قائلها وجه الله ، أثمرت مرتين وأتت أكلها حلالا طيبا .

وقد سمعنا خطباء ، ماتت كلماتهم قبل أن يغادروا منصة الخطابة .

ورأينا مؤلفين كتبوا كثيرا ، فماتت كتبهم قبل أن يموتوا.

فما أخرى الخطباء أن يحرصوا على الكلمة الصادقة ، وما أحوى أن يسجلوا الكلمة الصادقة .

وما أحراهم جميعا أن يريدوا الله فيما يقولون ويكتبون .

وربما ينجح الخطيب الكاذب الذي يريد وجه الشيطان ساعة ، ولكنه لاينجح الى قيام الساعة .

وما يقال عن الخطيب ، يقال عن الكاتب .

تلك هي عصارة تجربتي في الحياة ، فمن أراد أن يأخذ بها خدمة لنفسه ولامته ، فليفعل والعاقبة للمتقين .

ومن أراد أن يرفضها اليوم لسبب أو لاخر ، فسيأخذ بها غدا ، والا فسيموت وهو على قيد الحياة .

والله أسأل أن يفيد بما أقول وأكتب ، فما أحوجني الى الصمت والراحة، لولا شعوري بالمسؤلية أمام الله الذي أسأله أن يجعل جهدي خالصا لوجهه الكريم .

والحمد لله غاية الحمد ، والشكر له غاية الشكر ، فلولا الله عز وجل ما أديت وما توفيقي الا بالله ، عليه توكلت واليه أنيب •

وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين •

بغداد في ٢١ ـ محرم الحرام ـ ١٣٩٨ هـ

١ - ١ - ١٩٧٨ م

محمود شيت خطاب

مقدمة الطبعة الاولى

صدرت قصص كثيرة في الاعوام الاخيرة ، أقبل على قراءتها الشباب والشابات، لانها تدور على (الجنس) وتشجع عليه ، مما أدى الى أشاعة الفحشاء في كثير من قرائها .

هذه القصص الجنسية الداعرة ، قصص المخدع التي تبجح بالخلاعة وتدعو الى الميوعة ، أضرت بقرائها أبلغ الضرر، لانها عملت على افساد أخلاقهم ، وجعلتهم يرون في(الجنس) هدفهم الحيوي في الحياة .

لقد أنتصر أجدادنا الفاتحون بأخلاقهم المحاربة ، ولست أشك في أن الذي يتلوث جنسيا لايقوى على تحمل أعباء الحرب ، ولا يستطيع النهوض بواجباته في القتال .

وبذلك أفاد مؤلفوا قصص المخدع اسرائيل من حيث يدرون أو من حيث لا يدرون !!

وهذه القصص التي أقدمها اليوم أقوى ما أكون أملا في أن تملأ فراغا وتسد حاجة ، في مثل هذه الظروف العصيبة التي تجتازها الامة العربية ، هي قصص من الواقع، تثبت للقراء عامة وللشباب والشابات منهم خاصة ، بأن الحياة ليست (جنسا) فقط ولا (مادة) فانية فقط ، بل هناك مثل عليا ، وهذه المثل هي وحدها تجعل للحياة قيمة ومعنى ، وتجعل معتنقها مفيـدا لعقيدته مخلصا لامته أمينا على المصلحة العليا ، بعيدا عن الشيطان قريبا من الله .

انها قصص تبني ولا تهدم ، وتعمر ولا تخرب ، وتقيم القلوب والعقول معا على أسس رصينة من الايمان العميق .

والله أسأل أن نفيد بها القراء ، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم .

القاهرة في ٢٣ ـ ٩ ـ ١٩٦٨

محمود شيت خطاب

مقدمة الطبعة الثانية

لاقت الطبعة الاولى من هذه القصص رواجا بين القراء أكثر بكثير مما كنت أتوقعه ، ذلك لانني توقعت أن قرائي لايقبلون على كتاب قصصي أكتبه ولا يتقبلونه ، لانهم اعتادوا أن أقدم اليهم الكتب الجادة في التاريخ العسكري العربي الاسلامي ، وفي القضايا العسكرية المعاصرة ، ولم يعتادوا على تقديم كتب في القصة أو الادب •

ولكن الظاهر أنهم اكتشفوا هدفي الاصلي من كتابة هذه القصص، وهو الدعوة الىالله بأسلوب قصصي ، ربما يؤثر في الشباب والشابات أكثر مما يؤثر فيهم أسلوب آخر •

فالحمد لله على فضله والشكر له على توفيقه ، وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله ، وعلى آله وأصحابه وسلم •

عدالة السماء

(١)

كان رجلا معدما ولكنه كان سعيدا .

وكانت له عائلة مؤلفة من زوجة وخمسة أولاد وأختين ووالدة طاعنة في السن ، له حانـوت يبيع فيـه الخضروات . اليقطين والباذنجان والسلق والفجل والطماطم ...الخ ...

حانوته هذا في طريق فرعية ، يبيع فيه سلعته لجيرانـه من الفقراء ، فلم يكن له من المال ما يؤجر به حانوتا في موقع متميز أو يشتري به سلعة متميزة .

أما داره الخربة فتسمى من باب المجاز دارا ، وهي فـــي حقيقتها غرفة واحدة حولها ركام من الانقاض ، وفي هذه الغرفة ينام أفـراد العائـلة ويطبخـون ويستحمون ولهم فيها مـآرب أخرى .

واذا عاد الرجل الى داره بعد غروب الشمس ، ومعه الخضرة واللحم والخبز ، تستقبله العائلة كلها بالفرح والتصفيق

والاغاني والاهازيج ، ويتناولون منه ما بيديه من طعام ، ويهرعون الى القدر لاعداد العشاء .

ولم يكن يحضر اللحم لاهله كل يوم ، فاذا كان مبيعه اليومي رابحا استطاع أن يشتري لحما ، والا فعشاء عائلته من بقايا ما كسد من خضروات حانوته .

وكانت تلك العائلة تسكن الى جوار حاكم في المحكمة العليا ، وكان ذلك الحاكم يعطف على تلك العائلة ويزورها بين حين وآخر .

وهذا الحاكم كثيرا ما حدثني عن عائلة جاره قائلا : « لم أر في حياتي عائلة سعيدة مثل هذه العائلة ، ولم أر فرحا غامرا كالفرح الذي يشيع في العائلة عندما يعود ربها من عمله مساء ، وكنت كثيرا ما أحب أن أعيش وقتا سعيدا بينها حين يصل جاري الى داره فتستقبله العائلة كلها بالفرح والامان ، ثم يبدأ عملها الدائب في اعداد العشاء ، فاذا نضج الطعام بدأوا بتناوله من اناء كبير ، فاذا انتهوا من عشائهم حمدوا الله وشكروه ، وأكثروا من حمده وشكره ، ثم آووا الى فراشهم الخلق البسيط فرحين قانعين ، لا يتمنون على الله غير الستر والعافية وألا يجعلهم يحتاجون الى انسان » .

وفي يوم من أيام الخريف ، كانت العائلة تنتظر رجلها

مساءاً على باب الدار، فاذا بهم يرون بعض الشرطة يحملون نعشا ، فلما تبينت العائلة الامر وجدت معيلهاالوحيد هو المحمول على النعش •

كان قد أغلق حانوته ، وقصد القصاب فاشترى لحما ، وقصد الخباز القريب فاشترى خبزا ، وحمل بقايا خضرته من دكانه ، فلما أراد عبور الشارع دهشته سيارة طائشة ، فمات الرجل فورا ، وتبعثر ما كان معه من زاد •

وتجمع الجيران حول النعش ، وجمعوا من سراتهم بعض المال ، وأنفقوا على تجهيز الجثة الهامدة بعض ما جمعوه، وقدموا ما تبقى من مال زهيد الى العائلة ، وفي صباح اليوم التالي حملوا فقيدهم الغالي الى مثواه الاخير وواروه في التراب •

وكان أكبر أولاده في سن الخامسة عشرة ، يدرس في الصف الثاني في المدرسة المتوسطة الشرقية ، يعد نفسه ليكون موظفا صغيرا بعد تخرجه من الاعدادية فيعاون أهله بمرتبه الضئيل •

وبعد يومين من موت والده ، نفد آخر ما جمعه الجيران من مال للعائلة، وفي اليوم الثالث قصد أكبر اولاد الفقيد حانوت والده وأخذ يزاول مهنة أبيه •

بدأ يعمل ليعول أمه واخوته الصغار وغمتة وجدته ...
وودع المدرسة لاخر مرة .

وكان يعود كل يوم بعد غروب الشمس كما كان يفعل والده ..

ولكن الابتسامات غاضت الى غير رجعة .. والفرح مات الى الابـــد .. وكان الطعـام الذي تتناوله العائـلة ممزوجـا بالدموع ..

لقد دفنت العائلة سعادتها مع فقيدها الحبيب ..

(٢)

ومرت الايام ثقيلة بطيئة ، ودار الزمن دورته ، فانقضت ثلاث سنوات ، ودعى الولد الكبير الى الخدمة في الجندية بعد أن استكمل الثامنة عشرة من عمره ..

واجتمعت العائلة تتداول الرأي هل يترك الابن الثاني مدرسته ليتولى حانوت أبيه وحانوت أخيه من بعده ، وهو قـد أصبح في الصف الرابع الاعدادي لم تبق له غير سنة ليتخرج في الاعدادية ؟؟!! واذا لم يفعل فمن يعيل أهله ؟

واستقر رأي العائلة على بيع الدار ، ولو أن الخروج منها كخروج الشاه من جلدها ، لايسمى الا موتا أو سلخا ..!!

والتحق الابن الكبير بالجندية في بلد مجاور يتدرب على استعمال السلاح ، وكان معلم التدريب العسكري يلاحظه فيجد فيه ذهولاً وانصرافا عن التدريب ، فكان ينصحه تارة ، ويعاقبه بالتعليم الاضافي تارة اخرى .. دون جدوى ....

لقد كان حاضرا كالغائب ، او غائبا كالحاضر ، وكان جسمه فقط مع اخوانه الجنـــود في التدريب، ولكن عقله كان بعيدا .. بعيدا .. هناك عند عائلته .

واستدعاه ضابطه يوما ، وسأله عن مشكلته ، ففتح له قلبه وأخبره بأمره ، فبادله الضابط الانسان حزنا بحزن وأسى بأسى، وكف عن ملاحقته في أمر اتقان التدريب .

وعرض ضابطه مشكلته على آمر سريته ، فأمر بتعيينه في مطبخ الجنود يغسل القدور ، ويقطع اللحم ، ويوقد النـار ، ويوزع الطعام .

أما أمه.. فكانت هي أيضا حاضرة كالغائبة...استقرضت بعض المال من أحد سماسرة بيع الدور لتطعم العائلة بـه ، ورهنت سند الدار عند السمسار ، وعرضت الدار للبيع ..

واستمر عرض الدار على الراغبين بشرائه أياما ، وأخيرا وبعد مرور عشرين يوما ، باعت الدار بأربعمـائة دينـار ، ثم قضت تسعة أيام في معاملات حكومية رتيبة لنقـل ملكيتهـا الى المالك الجديد .

والموعد شهر كامل ، قضت منه تسعة وعشرين يوما في البيع ونقل ملكية الدار الى المشتري الجديد ، وبقي يوم واحد على موعد اعطاء البدل النقدي عن ولدها ، وكان عليها أن تسافر الى المدينة التي استقر فيها ولدها في الجندية مساء اليوم التاسع والعشرين ، لتسلم البدل النقدي صباح اليوم الثلاثين ، فاذا تأخرت عن ذلك الموعد ساعة فلن يقبل من ابنها البدل النقدي ، وعليه أن يتم خدمة العلم كاملة وهي سنتان .

(٣)

وقصدت الام مأوى السيارات التي تنقل الركاب من بلدتها الى بلدة ولدها ، فوجدت السيارات ولم تجد الركاب .

كان الوقت قبيل الغروب في يوم من أيام الصيف ، وانتظرت ساعة في مأوى السيارات دون أن يحضر مسافر واحد . وانتظرت على أحر من الجمر ، وقد غابت الشمس ، والمسافة بين المدينتين حوالي أربعين ومئتي كيلومتر تقطع بالسيارات في ساعتين ونصف الساعة فاذا لم تسافر ليلا ضاع عليها الوقت ولن تصل مدينة ولدها الا بعد ساعات من صباح اليوم التالي .

وعرضت على سائق احدى السيارات ان تستأجر - وحدها - سيارته على أن يسافر بها فورا . وقبض السائق

أجرة سيارته كاملة من المرأة،وتحركت السيارة في طريق جبلية وعرة ، وفي الطريق تحدث السائق الى المرأة ، فعلم منها قصة بيع الدار ، وقصة دفع البدل النقدي عن ولدها ٠

وتدخل الشيطان بينهما ، فلعب دوره في تخريب ضمير السائق ، فعزم على تنفيذ خطة لاغتصاب المال من المراة المسكينه

وفي احدى منعطفات الطريق ، حيث يستقر الى جانب الطريق الأيمن واد صخري سحيق ، اوقف السائق سيارته فجأة ، وسحب المرأة قسرا من السيارة الى خارجها ، وسحبها سحبا الى مسافه عشرين مترا في الوادي السحيق ، وهناك طعن المرأة بخنجره عدة طعنات ، فلما تراخت وظن انها فارقت الحياة، سلبها مالها ، ثم عاد الى سيارته تاركا المرأة وحيدة فريدة في مكانها تنزف الدماء من جروحها ، وتتخبط في بركة من الدم ٠

وقصد المدينة التي كان متجها اليها ، فقد خشي أن يعود الى المدينة التي خلفها وراءه ، لئلا ينكشف أمره ، اذ يعود اليها بدون مسافرين ، وقبل الوقت المعقول لذهابه وايابه ٠٠٠٠!

وعندما وصل الى المدينة ، آوى الى مأوى السيارات ، فزعم لأصحابه أن المسافرين الذين كانوا معه غادروا سيارته بعد عبور الجسر ٠

ووجد ركابا ينتظرون السفر الى البلدة التي غادرها مساء، فسافر بهم عائدا من نفس الطريق ٠

وحين وصل الى المكان الذي ارتكب فيها جريمته الشنعاء، أوقف سيارته ، وأدعى لركابها الذين كانوا معه انه يريد أن يقضي حاجته ثم يعود اليهم فورا ... !

وانحدر الى الوادي السحيق ، متجها الى مستقر المرأة ، فسمع أنينا خافتا صادرا من المرأة الجريح التي كانت أقرب الى الموت منها الى الحياة .. وقصد المرأة السابحة ببركة من الدم، وقال لها « ملعونة! ألا تزالين على قيد الحياة حتى الآن ! » . وجمدت المرأة في مكانها ، وانتظرت مزيدا من الطعنات ...!.

وانحنى السائق الى صخرة ضخمة ليحطم بها رأس المرأة الجريح ، وما كاد يضع يديه تحت الصخرة الا وصرخ صرخة مدوية هزت الوادي الصخري السحيق ، ورددتها جنباته الخالية الا من الوحوش والافاعي والهوام ، وسمعها ركاب السيارة ، فهرعوا لنجدته .

كانت تحت تلك الصخرة الضخمة التي أراد السائق المجرم رفعها ليقذف بها رأس المرأة الجريح ، حية سامة لدغته حين كان يهم بحمل الصخرة العاتية ، فسقط الى جانب المرأة يستغيث ويتألم ... !

وحمل المسافرين السائق ، وحملوا المرأة ، وانتظروا على قارعة الطريق حتى قدمت سيارة أخرى ، فاستوقفوها وطلبوا من سائقها حمل المرأة والسائق الى المستشفى التي كانت

في المدينة التي يستقر فيها ولد المرأة الجريح •

وفي الطريق فارق ذلك السائق المجرم الحياة متأثرا بالسم الزعاف القاتـل •

وفي المستشفى ، قدم الشرطة والمحققون العدليون، فعرفوا القصة كاملة ، وانتزعوا مال المرأة من طيات جيـوب السائق اللعيـن •

وطلبت المرأة حضور ولدها ، فحضر في الهزيع الاخير من الليل ••• وراحت المرأة في غيبوبة عميقة ، فظن الاطبـاء والممرضون أنها تعاني سكرات الموت ••• وعمل الطبيب عـلى نقل الدم اليها •

وفي ضحى اليوم التالي فتحت عينيها لتقول لولدها : «ادفع البدل النقدي سريعا » ثم أغمضت عينيها وراحـت في سبـات عميق •

ودفع الولد بدله النقدي ، وسرح من الجيش••وتحسنت صحة أمه يوما بعد يوم ، حتى تماثلت للشفاء ، حيـث غـادرت المستشفى الى أهلهـا ••

وذهبت قصة نجاتها ، وقصة موت السائق ، وقصة الحية المنقذة ، شرقا وغربا ، وأصبح حديث الناس جميعا •• ولقـد

كان الوادي الذي ارتكب السائق فيه جريمته ، والذي قذف بين صخوره المراة الجريح ، من الوديان الموحشة الخالية من الماء والكلا ، كما كانت سفوحه منحدرة انحدارا شديدا ، فلا يسلكه الناس ولا يطرقونه ، حتى الرعاة لا يجدون فيه ما يفيد ماشيتهم فاصبح موطنا امنا للذئاب والافاعي •

وما كانت المرأة الجريح لتسلم من الموت الاكيد ، لو لم يعد اليها الجاني مدفوعا بغريزة حب الاستطلاع ، وبالقوة الخفية التي هي القدر •

وما كان المسافرون مع الجاني ليعرفوا موضع المرأة ، لو لم يصرخ الجاني صرخة مدوية بدون شعور ولا تفكير متألما من لدغة الأفعى السامة ، ولو لم يسقط الى جانب المرأة ، فقد كان الظلام دامسا •

وما كان ولدها ليدفع البدل النقدي لو قدمت أول سيار لم تكن متجهة الى المدينة التي كان فيها • ولو أن أول سيارة قدمت من الجهة المعاكسة ، لنقلت والدته اليها بعيدا عن مدينته التي يقضي عسكريته فيها ، ولضاع الوقت المحدد لدفع البدل النقدي في قوانين التجنيد • وكان البدل النقدي في حينه مئة دينار • لقد كان ذلك كله من تدبير العلي القدير •

(٤)

قال الحاكم الذي هو جار لتلك العائلة : « سمعت قصة جارتنا كما سمعها الناس ، فاشتركت مع الجيران الاخرين في جمع ثمن دارها ، حتى تستعيدها من صاحبها الجديد •

وسمع صاحب الدار الجديد هو الاخر بقصتها ، فأعاد اليها سند الدار وملكيتها •

وبقي المبلغ الذي جمعه لها الجيران مع ثلاثمائة دينار من أصل ثمن الدار ، فجددت بذلك المبلغ بناء الدار • واقبل الناس على حانوت ولدها ، يشترون سلعته ويتسابقون على معاونته •• وفي خلال سنة واحدة تضخم عمله ، وأقبلت عليه الدنيا ، فانتقل الى حانوت كبير في شارع عام في موقع مرموق •

ومرت السنون ، وفي كل عام كان في الدار بناء جديد ••

وتخرج الاولاد من مدارسهم واحدا بعد الاخر ، فأصبح أحدهم مهندسا والاخر طبيبا والثالث ضابطا في الجيش ••• ولم يعد طعامهم اليومي من الشاي والخبز أو من الخبز والخضرة بل كان لهم لحم في كل يوم مع ألوان شهية أخرى من الطعام وفتح الله عليهم باب بركاته ، وأغدق عليهم رعايته ، وجمع شملهم

مثالا للخلق الكريم بين الناس متعاونين في السراء والضراء .

وعلى ضفاف دجلة قرب الجسر الكبير في بغداد ، دار عامرة بالخير والوفاق والسعادة هي الدار الجديدة التي انتقلت اليها العائلة الصابرة المحتسبة عام (١٣٨٥) ، وقد تضاعف عدد العائلة فأصبحت أربع عائلات ، فقد تزوج الاولاد الكبارالثلاثة وأخصبوا ، ولكن رباط العائلة ما زال قويا ، وأم الاولاد لاتزال سيدة البيت بدون استثاره أو ازعاج » .

لقد سمعت قصة هذه العائلة من صديقي الحاكم الكبير . فأردت أن أسمعها من احد افرادها .

وسألت الابن الكبير الذي كان خضريا فقيرا فأصبح تاجر كبيرا ، أن يحدثني حديث أمه فقال : « ولماذا لاتسمع حديثها منها ؟ » .

وكنت ذات مساء في دارهم العامرة على ضفاف دجلة،أسرح النظر في انعكاس نور القمر على الماء الرائق المتدفق ، وأنا أصغي الى أغاني ملاحي السفن الشراعية والسفن التجارية وترديد ركابها ، منتظرا انقضاء صلاة الوالدة . وجاءت الأم وقد أحاطت شعرها الابيض بغلالة بيضاء ، وفي وجهها نور ، وعلى قسماته ابتسامة ، وعلى لسانها ذكر الله... وروت لي قصتها كاملة ،

فقلت لها : « وماذا كان شعورك حين تركك الجاني وحيدة تنزف جروحك دما في بطن الوادي السحيق ؟ » .

فقالت والايمان الصادق يشع من كلماتها : « كنت أخاطب الله عز وجل قائلة يا جبار السموات والارض أنت أعلم بحالي ...فهيء لي بقدرتك القادرة أسباب دفع البدل النقدي عن ولدي ، ليعود الى أهله ويعيلهم .. يا رب ...» .

واستجاب الله دعاءها وأعاد اليها مالها وولدها ، وانتقم لها من خصمها ، وبدل حال العائلة كلها الى أحسن حال .

تلك قصة من الواقع .. ولكن حوادثها أغرب من الخيال ... وسيقول بعض الناس : ان ما حدث صدفة...وليقل هؤلاء ما يقولون ... ولكنني لاأشك في أن ما حدث من تدبير العلي القدير ...فليس من المعقول أن يحدث كل ذلك صدفة ... ولو أراد انسان ان يوقت حوادث هذه القصة مثل هذا التوقيت الدقيق ، لعجز .

ان الناس يغفلون وينامون ، والله وحده لايغفل ولاينام . وما من دابة الا على الله رزقها ... والله لاينسى رزق النملة في الصخرة القاسية وسط عباب المحيط ، فكيف ينسى أرزاق الارامل واليتامى ؟ ! والناس يخشون الناس ، والله أحق أن

يخشوه... والله يمهل ... ولكن لا يهمل ..

ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ..

بشر القاتل بالقتل

(١)

كان ثلاثة رجال من الفلاحين يسيرون ليلا من قرية على نهر (الخازر) الذي يقع في منتصف الطريق بين (الموصل) و (عقرة) متجهين نحو قرية في منطقة (عقرة) ، وكان معهم بعض الدواب والماشية وبعض المال ٠

وكان أهلهم في قريتهم الجبلية ينتظرون وصولهم الى القرية في منتصف الليل ، ولكنهم لم يصلوا اليها في الوقت المعين ٠

وأصبح الصباح ولم يصل الرجال الثلاثة الى القرية ، فأخبر أهلهم مختار تلك القرية ، فركب حصانه ويمم شطر (عقرة) ، وأخبر الشرطة هناك بالحادث ٠

وامتطى مفوض الشرطة ومعه بعض رجاله في سيارة

مسلحة ، وساروا على طريق عقرة - نهر الخازر المبلطة ، وكانوا يتوقفون في القرى يسألون عن الرجل المفقودين •

واستمر تفتيش الشرطة خمس ساعات ، ثم عثروا على الجثث الثلاث للرجال الثلاثة ، محروقة في جوف واد سحيق، ولم يجدوا اثرا لدوابهم وماشيتهم ونقودهم •

وابتدأت الشرطة تطارد الجناة ، وبعد أيام عثروا على قسم من دواب وماشية الثلاثة المقتولين في حوزة أخوين شقيقين فألقوا القبض عليهما •

(٢)

وجرى التحقيق مع المتهمين ، وكانا معروفين بارتكاب جرائم القتل والسرقة والسلب ، وبعد التحقيق الدقيق قدما الى المحكمة العسكرية العرفية •

كانت سوابق (هذين) المتهمين تشير الى أنهما اللذان ارتكبا تلك الجريمة الشنعاء •

وكان عثور الشرطة على قسم من دواب وماشية القتلى عند المتهمين دليلا ماديا على ارتكابهما جريمة القتل •••

وعندما وقعا في فخ الشرطة ، تكاثر عليهما الشهود ، فاعترف أحدهما وهو الصغير بأنه أرتكب جريمة القتل ، بينما أصر الثاني على الانكار .

وتداول قضاة المحكمة العسكرية العرفية بامر المتهمين ، فكان من رأي الاكثرية أن الاخ الصغير اعترف بعد أن رأى ان الادلة على ارتكابه الجريمة متواترة لاسبيل الى التخلص منها ، لذلك أراد أن يتحمل العقاب وحده باعترافه ويخلص شقيقه من العقاب .

وأخيرا حكمت المحكمة على الشقيقين بالاعدام علنا شنقا حتى الموت ، ثم ارسلت بالدعوى الى المراجع العليا للتصديق .

(٣)

كانت الجريمة بشعة حقا ، استفزت الرأي العام، فكانت حديث المجالس ، وقد وصلت الى اسماع الناس في كل مكان ، وكانت السلطة العليا تحرص على تطمين الناس وادخال الامن الى نفوسهم وتهدئة روعهم ، فصدقت على الحكم بسرعة ، وأقرت تنفيذ الحكم على الشقيقين في ميدان عام مزدحم بالسكان .

ونشرت الصحف تصديق الحكم على الاخوين، وأذاعت

محطة الاذاعة الخبر ، وتسامع الناس بموعد تنفيذ الحكم بهما ومكانه ، فأقبلوا زرافات ووحدانا ليشهدوا مصرع الجانيين .

وفي عصر يوم من أيام أواخر الخريف من عام ١٩٥٢ ، كان المسؤولون عن السجن يقيمون مشنقة خشبية في ساحة(باب الطوب) من مدينة الموصل ، فانتشر الخبر انتشار النار في الهشيم، وسمع من لم يسمع بخبر العزم على تنفيذ حكم الاعدام بالمجرمين صباح يوم غد ، وسمعت بالخبر كما سمعه الناس .

وعزمت على أن أشهد تنفيذ حكم الاعدام بهما ، وحرصت ألا تفوتني تلك الفرصة ، فقد كان وقع الجريمة في نفسي شديدا .

وكنت أسهر في ليلة التنفيذ مع بعض الضباط في النادي العسكري، واذا بجندي من جنود الانضباط العسكري (الشرطة العسكرية) يسلمني رسالة رسمية من آمر موقع الموصل ، فلما قرأت الرسالة علمت منها رغبة آمر الموقع أن أحضر الى السجن ممثلا للجهة العسكرية لأبلغ المجرمين موعد تنفيذ حكم الاعدام ومكانه .

(٤)

وفي السجن حين حضرت لتبليغ المجرمين ، وجدت ممثلا

عن المحكمة العسكرية العرفية ، ومدير السجن، وطبيبه وممثلا عن المحاكم المدنية ، وممثلا عن الادارة المحلية ، ووجدت ملفا ضخما للدعوى فيها أوراق بيضاء وحمراء وصفراء ... الخ !

وكانت الاصول المتبعة أن يحضر ممثلون عن الجهات العسكرية والمحاكم المدنية والادارة المحلية وطبيب عسكري ، ليوقع كل واحد منهم على تلك الاوراق بعد تبليغ المزمع تنفيذ حكم الاعدام بهما ، والاجراءات الشكلية كانت تجري كالمعتاد

وقد ذهب كل ممثلي تلك الدوائر الرسمية ومعهم ملف الدعوى الضخم الى زنزانة المجرمين ، وهناك وجدوا شيخا من شيوخ الدين ينتظرهم .

وفتح السجان باب الزنزانة ، فاذا بالمجرمين شابين قويين مفتولي العضل متمالكين أعصابهما الى أقصى الحدود .

ودخلنا الزنزانة ، فاستقبلنا المجرمان بترحاب وأريحية كأنهما أصحاب الدار ، وكأننا ضيوف عليهما .

كانا هاشين باشين هادئين غير متذمرين، وكانا مؤدبين غاية الادب ، غير مكترثين بالامر كله ، وكانا (طبيعيين) حتى لقد تحرجنا من قراءة الحكم عليهما وبقينا واجمين صامتين مدة من الزمن لاندري كيف نبدأ الحديث .

وأخيرا قرأنا عليهما الحكم ، وأخبرناهما بأن الاعدام سينفذ بهما صباح غد علنا في ساحة (باب الطوب) ... فاستمعا الى كل ذلك بشجاعة وصبر عجيبين .

سألناهما كالمعتاد : ماذا تريدان ؟ وهل لديكما ما تقولان؟

(٥)

قالا : لانريد شيئا غير الشاي وعلبتين من الدخائن(١) .

وقالا : نريد رحمة الله وغفرانه ، ولا نريد من البشر شيئا .

وتضاحكا ، وأخذ كل واحد منهما يشجع أخاه .

قال الصغير للكبير : « لقد ارتكبت أنا الجريمة ، فشاركتني أنت في العقاب ، وما كنت أريد لك هذا المصير ظلما وعدوانا !!» .

وقال الكبير للصغير : « لاتحزن .. ! صحيح أنني لم اشترك معك في قتل الرجال الثلاثة ، ولكنني قتلت غيرهم كثيرا ، فأنا اليوم أؤدي ما في عنقي من ديون » .

وسرد الاخ الصغير قصته كاملة على الحاضرين ، فكان

---

١ ـ الدخائن جمع دخينة ، وهي السيكارة .

مجمل ما قاله : انني اليوم أقرب ما أكون الى الله ، وسأكون غدا ضيفه. ان أخي هذا لم يشارك في قتل الرجال الثلاثة ولم يشهد قتلهم .

.. لقد كنت وحدي ومعي بندقيتي في حفرة بالقرب من قارعة الطريق ، فلما مر بي الرجال الثلاثة مع دوابهم ومواشيهم انتهزتها فرصة سانحة وقررت ألا يفلت من يدي هذا الصيـد الثميـن .

كنت أراهم ولايرونني ، فصوبت بندقيتي على رأس أحدهم، ثم اطلقت النار عليه فأرديته قتيلا . وارتبك الاثنـان الباقيان وامتدا على الارض بالقرب من مكمني ، فأطلقت النـار على الثاني ، فأرديته قتيلا . ونهض الثـالث من مكانـه وهرب متعثرا ، فعاجلته برصاصة استقرت في رأسه فمات على الفور .

وجمعت الدواب والماشية وفتشت جيوب القتلى ، وسلبت ما كان عندهم من نقود ، ثم قدت الدواب والماشية الى بطن الوادي القريب من الطريق ، ثم ربطتهم بالحبال ، وعدت الى الجثث في محاولة ابعادهم عن الطريق .

وسحبت الجثث الى بطن الوادي ، لانني خفت أن يراهم عابر سبيل فيخبر أهل القرى بالحادث ، فيتنادى سكانها فيلقوا

القبض على الدواب والماشية قبل أن أستطيع الفرار بها وتدبير أمرها .

وحين استقرت الجثث في بطن الوادي ، جمعت بعض الاخشاب والاعشاب اليابسة ، ووضعتها فوق الجثث ، وأوقدت فيها النيران لاخفاء معالم الجريمة الى الابد .

وكان وادي الموت سحيقا ، وكانت النيران تلتهم الجثث فلا يراها أحد ، وكانت أقرب القرى الى ذلك الوادي تبعد ثلاثة أميال .

وسقت الدواب والمواشي الى قريتي آمنا مطمئنا ، فوصلت اليها في منتصف الليل ، فربطتها بالقرب من القرية ، وذهبت الى شقيقي هذا ، وأخبرته بالحادث ، فأسرع معي الى مكان الدواب والماشية ، فاستقناها بعيدا واخفيناها في شعاب الجبال .

ولما علم رجال الشرطة بالحادث ، تعقبوا آثار الدماء ، فعثروا على بقايا الجثث ، ثم استطاعوا بقدرة من السماء أن يعثروا عليها في أعماق الوديان .

وحين ألقى رجال الشرطة القبض علينا ، كنا نائمين بالقرب من عين من عيون الماء تحت شجرة ضخمة من أشجار البلوط ،

ولو كنا يقظين لما استطاعت أي قوة في الدنيا القاء القبض علينا •

وفي المحاكمة ، شهد الشهود بسماع طلقات نارية في ليلة الجريمة ، كما شهد أهل القرية بأنهم افتقدوني وشقيقي منذ تلك الليلة حتى القاء القبض علينا •

واقتنع قضاة المحكمة بأنني وشقيقي قتلنا الرجال الثلاثة ، ولم يفد معهم اعترافي بالجريمة واصرار شقيقي على الانكار •

لقد ظنوا أنني أضحي بنفسي من أجل شقيقي ، وأنني أريد أن أنقذه من حبل المشنقة ، وما علموا أن اعترافي هو الحق ، وأن انكاره هو الحق أيضا •••» •

وتنهد الاخ الكبير ، وقال : « ان ما قاله شقيقي حق ، ولست في معرض الدفاع عن نفسي • لانني أعلم أن وقت الدفاع عن النفس قد فات • ولكنني أعترف بأنني قتلت غير هؤلاء الرجال الثلاثة الذين قتلوا في تلك الليلة ، وكنت أقتل القتيل وأمشي في جنازته أشد ما أكون تظاهرا بالحزن عليه • وقد ستر الله علي مرات كثيرة ، ولكن الله يمهل ولا يهمل •

وغدا سأشنق من أجل قتلاي الكثيرين لا من أجل القتلى الثلاثة ، واذا استطعت أن أتهرب من عقاب البشر ، فانني لم أستطع أن أتهرب من عقاب الله » •

(٦)

في صباح اليوم التالي ، كان شابان يتسابقان بخطوات ثابتة رصينة لصعود سلم المشنقة ، وعلى السطح تحت حبلين يتمرجحان ، تعانق الاخوان ، وقال الصغير للكبير : « أطلب منك العفو » ، فأجابه الكبير : « انك لم تقترف ذنبا بحقي ، فأنا المذنب بحق نفسي » .

وبعد لحظات كانت جثتان هامدتان يتلاعب بهما الريح ، وكانت تحتهما امرأة عجوز تنهل الدموع من عينيها غزيرة مدرارة .

وكان الذين شهدوا تنفيذ حكم الاعدام يزيدون على عشرة آلاف نسمة : رجالا ونساء ، وشيوخا وأطفالا .

ولم يكن بين الحاضرين من يشاركها أساها ، ولم يكن بينهم من يشاطرها الحزن ، ولا شماتة في الموت ، ولكن الجريمة كانت أفظع من مقابلتها بغير الشماتة القاسية .

وتحلق بعض الناس حولها يصبون لعناتهم على المصلوبين ، ولكن المرأة العجوز ـ وكانت أم المجرمين اللذين لا تزال تتأرجح جثتاهما على حبال المشنقة ، ويعبث بهما الريح بعنف وقسوة ـ تسربت من بين الحشود الشامتة الغاضبة ، بعد أن

ألقت عليهم درسا لا يزالون يذكرونه حتى اليوم ولا اخال أنهم سينسونه في يوم من الايام .

قالت الام الثكلي : انني لا أملك الا الحزن عليهما ، فهما فلذتا كبدي ، ولكنني كنت متيقنة منذ زمن بعيد أن مصيرهما سيكون القتل بالرصاص أو الصلب على أعمدة المشانق .

وكم كنت أتمنى أن يموتا شهيدين دفاعا عن بلادهما أو في أرض فلسطين ، اذا لرفعت رأسي عاليا بهما ..

لقد كنت أقول لهما : ان الموت مصير كل حي ، ولكن شتان بين أن يموت المرء شهيدا ، وبين أن يموت مجللا بالخزي والعار !!

لقد كنت أقول لهما : بشر القاتل بالقتل ...
واليوم أرى مصرعهما بعيني ، فاذا كانت الحدود مطهرات ، فليكونا عبرة لغيرهما من الناس ...

ومضت المرأة العجوز هائمة على وجهها ...

فهل من معتبر ، أم على قلوب أقفالها ؟!.

ونطق القدر . . .

(١)

كان متنفذا في قرية من قرى شمالي العراق ، وكان يعيش برغد في قريته الجميلة الرابضة على سفح جبل عال تكلل هامته الثلوج صيفا وشتاء .

وكانت تلك القرية محاطة بالبساتين التي تمتد بعيدا الى أميال وأميال وهي تؤتي أكلها مرتين ، وكانت العيون فيهـــا كثيرة : باردة الماء حلوة المذاق غزيرة الامواه .

كانت تلك القرية جنة من جنات الله في أرضه : الثمر كثير ، والماء غزير ، والمناظر الطبيعية خلابة ، والخضرة تشيع في كل مكان !

(٢)

وتزوجت (سعاد) ابن عمها ، وكانت جميلة رائعة الجمال ، وكان جمالها حديث القرية وحديث القرى المجاورة ، وكانت تخطر في ثوبها الاحمر غادية رائحة ، فتنافس ورود القرية جمالا ، وتنافس أشجارها قدا واعتدالا .

وكان ذلك الرجل المتنفذ يراها رائحة الى العين الكبيرة مع لداتها تحمل جرة الماء على كتفها ، ويراها غادية الى دارها تحمل الماء العذب الزلال ، وكان يراها عاملة في الحقل مع زوجها ، جانية للثمر ، فيزداد حبه لها مع الايام عمقا ورسوخا .

وراودها ذات يوم عن نفسها فاستعصمت ، وهددها فثبتت ، ولكنها لم تذكر سرها لزوجها ولا لاهلها خوف الفضيحة وخشية سطوة غريمها الذي يحسب له أهل قريته ألف حساب .

(٣)

وبيت الرجل في نفسه أمرا ، وصمم على تنفيذه ...
كان زوجها يحصد زرعه في أواخر أيام الربيع وأوائل

أيام الصيف ،وكان عمله قد استغرق عليه يومه كله ، وكان زرعه قد بقي منه شطر قليل ، فتحامل على نفسه وحملها فوق ما تطيق ، ودأب يحصد بعد حلول الظلام .

وكانت زوجه في الدار تهيء له الطعام ، وكان قد أرسلها الى الدار مساء ليلحق بها بعد قليل ، وكانت معه النهار كله تعاونه في الحصاد ، وتحمل مايحصده الى ساحة مجاورة لمزرعته ، فأشفق عليها بعد تعب طويل ، وأشفقت عليه بعد جهد جهيد .

وكانت تنتظره في الدار متلهفة للقائه ، وكان يسرع في عمله متلهفا للقائها ، وكان طعامها جاهزا ، فوقفت بالقرب من باب الدار ترقب طريق عودته .

وكان الرجل العاشق يترصد زوجها وراء صخرة عاتية ، فلما رآه وحيدا بعد ساعة من غروب الشمس ، صوب بندقيته وأطلق النار عليه فأرداه قتيلا ... ثم تسلل الى القرية مستورا بظلام الليل البهيم .

وطال انتظار الزوجة ، فقصدت أهلها وأخبرتهم بأمره ، فلما ذهب أخوتها الى المزرعة ، وجدوه جثة هامدة وقد نزف دمه فغاص في بركة من الدماء .

وكما كان يملأ الدار انشراحا وفرحا حين كان حيا ، فقد ملأها حزنا وترحا بعد أن أصبح ميتا .

واتشحت أرملته بالسواد ، واصبحت أيامها أشد سوادا من ثيابها ، ودأبت على التطلع الى سير التحقيق عن مقتل زوجها .

واهتم رجال الامن بالحادث ، واهتم المحققون بالحادث أيضا ، وتضخمت الملفات وكثر السؤال والجواب وأخيرا أغلقت القضية ، بعد أن توجت تلك الملفات بالعبارة المألوفة : « الجاني مجهول الهوية ، ولم تعرف هويته على الرغم من التحقيق الدقيق » ، وهكذا نجحت العملية ومات المريض كما يقول بعض الاطباء !!

والحق أن هذه القضية بالذات ، كانت قضية صعبة جدا : القتيل ليس له عدو ، وأهله لايشتبهون بأحد ، وحادث القتل جرى في جنح الظلام ، والقاتل لم يترك أثرا لجريمته ، والجثة اكتشفت بعد ساعات من موتها .. ومكان حادث القتل بعيد عن القرية ..

وكان الناس يظنون أن القاتل نجا من العقاب الى الابد ، ولكن الله كان له بالمرصاد ، ويقدر الناس ، ويقدر الله ، ويد الله فوق أيديهم .

وبعد شهور من مقتل زوجها ، تنافس عليها المتنافسون يطلبون يدها ، وكان من بين المتنافسين عليها ذلك الرجل المتنفذ في قريتها .

وبذل الرجل المتنفذ جهدا من الجهد ومالا من المال ، وسعى سعيا حثيثا للحصول عليها بالحسنى تارة وبالتهديد تارة أخرى ، حتى استطاع التغلب على خصومه ، فزفت اليه حبيبته، وأصبح محسودا عليها يتربص به حاسدوه الدوائر .

ومضت الاعوام ثقلية الخطى على قلب الحسناء التي لم تنس ابن عمها زوجها الاول في يوم من الايام .

وكان ثراء زوجها الجديد ، وكان نفوذه ، وكان مايغدق عليها من حب ورعاية ، كل ذلك لاينسيها أيام ابن عمها بمافيها من آلام وآمال ، وجهد وعرق .

وكانت علاقتها بزوجها الجديد علاقة لباس وثريد ، وكانت علاقتها بزوجها الاول علاقة دم وروح ، وكل مال الدنيا وكل ثرائها لايساوي لمحة من علاقة الروح بالروح والدم بالدم .

كان حبا من جهة واحدة مع الزوج الجديد ، وكان حبا من جهتين مع زوجها الراحل ، فكانت أيامها مع الجديد أعواما، وكانت مع الاول لحظات.. !

(٦)

وقصد الزوج الجديد صديقا له في قرية مجاورة ، وأصر الصديق على اكرام ضيفة ، ومضت الساعات لاعداد الطعام ، حتى اذا مدت الاطعمة وأقبل عليها الحاضرون ، كان قد مضى الشطر الاول من الليل .

وعاد الزوج الى قريته في الهزيع الأول من الليل ، وفي طريق عودته بين منعطفات الوديان وسفوح الجبال ، سمع اطلاق النار وسمع أصوات استغاثات وحشرجة محتضر .

وسقط في يده ، فسحب مسدسه ليدافع عن نفسه وأطلق منه بضع عيارات نارية ، وركن الى حفرة وراء صخرة ضخمة، ينتظر انجلاء الغمة وتوقف اطلاق الرصاص .

وأقبل الناس من القرى المجاورة ومعهم رجال الامن والشرطة ، فوجدوا الرجل فوق جثة هامدة وثيابه ملطخة بالدماء ومسدسه بيده .

وقاده رجال الامن متهما بالقتل والسلب ، وكانت كل القرائن تدل على أنه هو القاتل : لاأحد في المنطقة غيره ، وقد وجد في الحفرة التي وجد فيها المقتول ، وثيابه ملطخة بدماء القتيل ، والاطلاقات التي خرجت من مسدسه هي من نوع

الأطلاقات التي استقرت في الجسد الهامد حسب تقرير الطبيب العدلي !!

ولم يفده دفاعه في أثناء محاكمته، أنه كان عابرسبيل، وأنه لجأ الى الحفرة خوفا من الرصاص المنهمر عليه ، وأنه أطلق النار دفاعا عن نفسه وتخويفا للاخرين ، ومن الصدف أنه استقر في حفرة القتيل نفسها .

والعجيب في الامر ، أن تلك الحفرة التي لجأ اليها في هذا الحادث ، كانت الحفرة نفسها التي كمن فيها لاغتيال الزوج الشهيد !!!

(٧)

ونطقت المحكمة الكبرى بالحكم عليه بالاعدام شنقا حتى الموت ، وصدقت محكمة التميز هذا القرار ، واستكملت الدعوى شكلياتها الرتيبة بعد ذلك .

وجاء يوم تنفيذ حكم الاعدام به ، وحضر أهله وزوجه لتوديعه الوداع الاخير ..

وسأل الرجل أن يختلي بزوجه لحظة من الزمان ، فأسر اليها بشيء وانهمرت من عينيه الدموع ، على حين وقفت

لزوجه جامدة كالتمثال لاتتكلم ولاتنوح ..

جاء السجان ليطلب الى اهله وزوجه مغادرة السجن ، فتركوا الرجل الى مصيره المحتوم .

ولم تتكلم الزوجة ، وكان سكوتها أبلغ من كل كلام .

وحين جاءوا بالرجل الى قريته بعد تنفيذ حكم الاعدام به ليوارى في التراب الى الابد ، كانت زوجه هي الوحيدة من بين أهله لم تتشح بالسواد حدادا عليه ..

وعادت الزوجة الى أهلها ومعها أولادها ، رافضة البقاء في دار أهله . رغم الالحاح والاغراء ..

وجاء أبوه يوما اليها طالبا استعادة أولاد ابنه اليه ، فلما ألح عليها وألحف همست في أذنه : « ان ابنك هو قاتل زوجي الاول ..! لقد قال لي حين اختلى بي في زنزانته على مرأى منك ومن أهله : أرجو عفوك ، فقد قتلت زوجك الاول من أجلك لكي تكوني لي وحدي ، ولم أقتل الرجل الذي حكمت من أجله بالموت ، ولكن الله كان بالمرصاد ، فانتقم مني لزوجك بعد حين » .

وسكت الوالد ، وسكتت الزوج ، ونطق القدر :

« بشر القاتل بالقتل » ...

دقــة بدقــة

(١)

كان تاجرا كبيرا،وكانت تجارته بين العراق وسورية (٢) : يبيع الحبوب في سورية ، ويستورد منها الصابون والاقمشة .

وكان رجلا مستقيما في خلقه ، كثير التدين ، يزكي ماله ويغدق على الفقراء مما افاء الله به عليه من خير .

وكان يقضي حاجات الناس ، لا يكاد يرد سائلا ، وكان يقول : « زكاة المال من المال وزكاة الجاه قضاء الحاجات » .

وكان يعود مرضى محلته ويتفقدهم كل يوم تقريبا،وكان يصلي المغرب والعشاء في مسجد صغير قرب داره ، فلا يتخلف

---

(١) مثل عامي شائع يقول : « دقة بدقة ... وان زدت زاد السقا»والسقا هو السقاءالذي يحترف حمل الماء الى المنازل.
والمثل العربي يقول : دقو بينهم عطر منشم : أظهروا العيوب والعورات . ومعنى هذا المثل العامي : من يقترف اثما يجزى بمثاله .

(٢) سورية هي الصحيح لا سوريا .

عن الصلاة أحد من جيرانه الا ويسأل عنه ، فاذا كان مريضا عاده ، واذا كان محتاجا الى المال أعطاه من ماله ، واذا كان مسافرا خلفه في عياله .

وكان له ولد وابنة واحدة ، بلغا عمر الشباب .

وفي يوم من الايام ، سأل ولده الوحيد أن يسافر الى سورية بتجارته قائلا له : « لقد كبرت يا ولدي ، فلا اقوى على السفر . وقد أصبحت رجلا والحمد لله ، فسافر على بركة الله مع قافلة الحبوب الى حلب فبع ما معك ، واشتر بها صابونا وقماشا ثم عد الينا . أوصيك بتقوى الله ، وأطلب منك أن تحافظ على شرف أختك » .

وكان ذلك قبل الحرب العالمية الاولى ، يوم لم يكن حينئذ قطارات ولا سيارات ...

(٣)

وسافر الشاب بتجارة أبيه من مرحلة الى مرحلة : يسهر على ادارة القافلة ، ويحرص على حماية ماله ، ويقوم على شئون رجاله .

وفي حلب الشهباء ، باع حبوبه ، واشترى بثمنها من

صابونها المتميز وقماشها الفاخر ، ثم تجهز للعودة أدراجه الى الموصل الحدباء .

وفي يوم من الايام قبيل عودتـه من حلب ، رأى شابـة جميلة تخطر بغلالة من اللاذ(١) في طريق مقفر بعد غروب الشمس ، فراودته نفسه الامارة بالسوء على تقبيلها ، وسرعان ما اختطف منها قبلة ثم هرب على وجهه وهربت الفتاة . وماكاد يستقر به المقام في مستقره الا وأخذ يؤنب نفسه ، وندم على فعلته ، ولات ساعة مندم .

وكتم أمره عن أصحابه ، ولم يبح بسره لاحد ، وبعد أيام عاد الى بلده .

وكان والده الشيخ في غرفته يطـل منها على حوش(٢) الدار ، حين طرق الباب السقاء ، فهرعت ابنته الى الباب تفتحه له ، وحمل السقاء قربته وصبها في الحب (٣) ، وأخت الفتى تنتظره على الباب لتغلقه بعد مغادرة السقاء الدار . وعاد السقاء بقربته الفارغة ، فلما مر بالفتاة قبلها ، ثم هرب لا يلوي على شيء .

---

(١) ثياب حرير حمر تنسج بالصين . واحدتها : لاذة . ويقول العامة : لاسة .

(٢) حوش الدار : فناؤها .

(٣) حب الماء : وعاء الماء كالزير والجرة . (ج) : أحباب ، وحببة ، وحباب .

ولمح أبوها من نافذة غرفته ما حدث ، فردد من صميم قلبه : « لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » .

ولم يقل الاب شيئا ، ولم تقل الفتاة شيئا ..

وعاد السقاء في اليوم الثاني الى دار الرجل كالمعتاد ، وكان مطأطىء الرأس خجلا ، وفتحت له الفتاة الباب ، ولكنه لم يعد الى فعلته مرة اخرى .

لقد كان هذا السقاء يزود الدار بالماء منذ سنين طويلة ، كما كان يزود دور المحلة كلها بالماء ، ولم يكن في يوم من الايام موضع ريبة ، ولم يحدث له أن ينظر الى محارم الناس نظرة سوء ، وكان في العقد الخامس من عمره ، وقد ولى عنه عهد الشباب وما قد يصحبه من تهور وطيش وغرور ...

(٣)

وقدم الفتى الموصل ، موفور الصحة ، وافر المال .

ولم يفرح والده بالصحة ولا بالمال ، لم يسأل ولده عن تجارته ولا عن سفره ، ولا عن أصحابه التجار في حلب .

لقد سأل ولده أول ما سأله : ماذا فعلت منذ غادرت الموصل الى أن عدت اليها ؟

وابتدأ الفتى يسرد قصة تجارته ، فقاطعه أبوه متسائلا : « هل قبلت فتاة ، ومتى ، وأين » فسقط في يد(١) الشاب ، ثم أنكر ...

واحمر وجه الفتى وتلعثم ، وأطرق برأسه الى الارض في صمت مطبق كأنه صخرة من صخور الجبال لا يتحرك ولا يريم (٢) .

ساد الصمت مدة قصيرة من عمر الزمن ، ولكنه كان كالدهر طولا وعرضا .

وأخيرا قال أبوه : لقد أوصيتك أن تصون عرض أختك في سفرك ، ولكنك لم تفعل » .

وقص عليه قصة أخته وكيف قبلها السقاء فلابد أن هذه القبلة بتلك القبلة وفاءا لدين عليك .

وانهار الفتى ، واعترف بالحقيقة .

وقال له أبوه مشفقا عليه وعلى أخته وعلى نفسه : « اني لاعلم أنني لم أكشف ذيلي في حرام ، وكنت أصون عرضي حين كنت أصون أعراض الناس ، ولا أذكر أن لي خيانة في

---

(١) سقط في يده : ندم وتحير ، قال تعالى : « ولما سقط في أيديهم » .

(٢) لا يريم : لايبرح .

عرض أو سقطة من فاحشة ، أرجو ألا أكون مدينا لله بشـيء من ذلك . وحين قبل السقاء أختك تيقنت أنك قبلت فتـاة ما ، فأدت أختك عنك دينك . لقد كانت دقة بدقة ، وان زدت زاد السقـا !! » .

(٤)

وكانت يمامة تتغنى فوق سطح الدار، وكان مما رددته :
من خاف على عقبة وعقب عقبه ، فليتق الله ..
ومن تعقب عورات الناس ، تعقب الله عورته .
ومن تعقب الله عورته ، فضحه ولو كان في جوف رحم .
ومن كان يحرص على عرضه ، فليحرص على أعـراض الناس ..
ومن أراد أن يهتك عرضه ، فليهتك اعراض الناس ..
لذة ساعة ، غصة الى قيام الساعة ..
وكل دين لابد له من وفاء .
ودين الاعراض وفاؤه بالاعراض ..
والمرء يهتك عرضه ، حين يهتك أعراض الناس ..
والذين يفرحون باللذة الحرام قليلا ، سيبكون على مـا جنت أيديهم كثيرا بحق أعراضهم .

والذين يخونون حرمات الناس ، يخـونون حرمـاتهم أولا ..

ولكنهم غافلون عن أمرهم ، لانهم آخر من يعلم ..
ولو علموا الحق ، لتواروا عن البشر خجلا وعارا ..
« ان ربك لبالمرصاد » ..
وانه أعدل العادلين ..
« فما كان الله ليظلمهم ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »..

الانسان الظلوم

(١)

كان تاجرا متوسط الثراء ، وكان يعمل بشراء الابقار من العراق أو من ايران ، ثم ينتقل بها هو ورجاله مرحلة مرحلة حتى يصل الى سورية ولبنان ، وقد يصل الى مصر ، ليبيع ما لديه من الابقار ، ثم يشتري بثمنها أقمشة ومصنوعات أخرى. ويعود بها الى العراق .

وكان الرجل مسلما حقا : قواما صواما منفقا على الفقراء، قائما بواجباته نحو ربه ونحو الناس ، ورعا تقيا نقيا ، ماله ليس له وحده ، بل للمحتاجين من أقربائه وأهل بلدته ولكل فقير محتاج .

وفي احدى سفراته بتجارته ، وكان ذلك قبل الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) ، هطل ثلج كثير ، فسد الطرق ، وقتل الاعشاب ، فماتت أبقاره عدا أربعة منها ، فصرف

رجاله ، وأخذ يتنقل بها من مكان الى آخر ، وكان في نيته أن يصل الى حلب الشهباء ، ليؤدي ما عليه من ديون هناك حسب طاقته ، ويطلب تأجيل ما بقي عليه منها الى العام القادم ، لان تجارته في عامه هذا لم تربح ، وان مع العسر يسرا •

وفي مساء ذات يوم من الايام وصل الى قرية صغيرة في طريقه من الموصل الحدباء الى حلب الشهباء ، فطرق باب أحد بيوتها ، فلما خرج اليه رب الدار ، أخبره بأنه ضيف الله ، وأنه يريد أن يبيت ليلته في داره ، فأذا جاء الصباح سافر الى قرية أخرى •

ولم تكن حينذاك فنادق يأوي اليها المسافرون ، ولم تكن يومئذ مطاعم يتناول الغرباء فيها طعامهم ••• لقد كان الغريب أو المسافر يطرق أية دار من دور الموقع الذي يصل اليه ، ثم يحل ضيفا بين ظهراني أهله ينام كما ينامون ، ويتناول من طعامهم بدون أجر أو مقابل •••

ورحب صاحب الدار بضيفه ، وأدخل أبقاره الى صحن داره ، وقدم الطعام للضيف والعلف للابقار •

(٢)

كان صاحب البيت معدما ، وكان قد أصابه ما أصاب الناس من جراء هطول الثلج بكثرة ولمدة طويلة ، فماتت

مواشيه ، وتضرر زرعه .

وكان متزوجا وله ولد واحد في العقد الثاني من عمره ، وكان في داره غرفتان : غرفة يأوي اليها هو وزوجه ، وغرفة يأوي اليها ولده .

واجتمعت العائلة حول الضيف الجديد ، وابتدأ السمر شهيا طليا ، عرف المضيف من خلاله أن ضيفه يحمل مبلغا من المال ...

وفي الهزيع الثاني من الليل ، آوى المضيف مع زوجه الى غرفتهما ، وأوى الضيف الى غرفة ولد المضيف ، فنام الولد على فراشه في الزاوية اليمنى من الغرفة ، وآوى الضيف الى فراشه في الزاوية اليسرى من الغرفة ..

وبعد أن سأل المضيف ضيفه عما اذا كان بحاجة الى شيء ما ، ثم اطمأن الى راحته ، وتأكد حتى من وجود الماء لديه ، وغادر غرفة ولده وضيفه الى غرفته لينام هو أيضا .

وفي غرفته همست له زوجه : يا فلان ! الى متى نبقى في عوز شديد ؟ هذا الضيف غني ، ونحن بأشد الحاجة الى ماله وأبقاره . اننا مقبلون على مجاعة لايستطيع الاغنياء أن يتغلبوا عليها الا بمشقة بالغة ، وسنموت نحن بدون ريب . اننا الان نأكل يوما ونجوع أياما ، فكيف بنا اذا حلت بالقرية المجاعة المترقبة ، ولا مال عندنا ولا طعام ؟

« ان الفرصة سانحة اليوم ، ولن تعود مـرة أخرى في يوم من الايام ! هلم الى الضيف فاسلبه ماله ، وخذ أبقاره، حتى تبقي على حياتنا وحياة ولدنا الوحيد » .

وقال لها الرجل : « كيف وهو ضيفنا ؟ ! كيف أسلبـه ماله وأبقاره ؟ ! كيف يسمح لنا بسلبه ؟ ! » .

وقالت زوجه : « اقتله ، ثم نرميه في حفرة قريبة ببطـن هذا الوادي ، ومن يعرف بخبره ؟ من !!» .

وتردد الرجل ، وألحت المرأة ، وكان الشيطان ثالثهما فزين للرجل قول امرأته ، وألح هو أيضا في الاقدام على قتـل الضيف .. ولكي تقطع المرأة على زوجها داء تردده ، ولـكي يقطع عليه الشيطان قالت المرأة لزوجها : « ان ما تفعله ضرورة لانقاذنا من الموت الأكيد ، والضرورات تبيح المحرمات » !..

واقتنع الرجل أخيرا ، وعزم على قتل الضيف وسلب ما لديه من مال ومتاع .

(٣)

كان الوقت في الثلث الاخير من الليل ، وكان كل شـيء هادئا ساكنا ، وكانت الانوار مطفأة ، ولم تكن أنوار المنازل في حينه غير سراج يوقد بالزيت .

وأخرج الرجل خنجره ، وشحذه ، ثم يمم شطر غرفة الضيف وابنه ، ومن ورائه زوجه تشجعه ...

ومشى رويدا رويدا ، على رؤوس أصابع رجليه ، واتجه شطر الزاوية اليسرى من الغرفة حيث يرقد الضيف، وتحسس جسمه حتى تلمس رقبته في الظلام ، ثم ذبحه كما يذبح الشاة .

وجاءت الى الرجل زوجه ، وتعاونا على سحب الجثة الهامدة الى خارج الغرفة ، حيث اكتشفا هناك أنهما ذبحا ابنهما الوحيد .

وشهق الرجل شهقة عظيمة ، وشهقت المرأة ، فسقطا مغشيا عليهما . وعلى صوت الجلبة استيقظ الضيف ، وأستيقظ الجيران ، ليجدا ابن الرجل قتيلا ، وليجدوا أمه وأباه مغشيا عليهما راقدين الى جانب الجثة الهامدة على الارض .

وسارع الضيف وسارع الجيران الى الرجل وامرأته بالماء البارد يرشونه على وجهيهما ، وسارع هؤلاء الى تدليك جسدي الرجل وامرأته ، فلما أفاقا أخذا يبكيان بكاء مرا ، وطلبا الى الجيران ابلاغ الحادث الى الشرطة ، فجاءت على عجل وألقت القبض على الجانيين .

(٤)

ما الذي حدث في غرفة نوم الضيف وابن المضيف ؟..

لقد قام الابن الى فراش الضيف بعد أن غادر أبوه الغرفة، وأخذ الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث ، وكان الحديث ذا شجون ، فطال أمده ، حتى نام الولد على فراش الضيف بعد أن غلبه النعاس .

ولم يشأ الضيف أن يوقظ ابن مضيفه ، فترك له فراشه بعد أن أحكم عليه الغطاء ، ثم آوى الى فراش ابن المضيف ..

وحين قدم المضيف الى غرفة الضيف وابنه ، كان متأكدا من موضع فراش كل واحد منهما ، فذبح ابنه وهو يريد الضيف ، فكان كالخارجي الذي أراد اغتيال عمرو بن العاص في عماية الفجر ، فاغتال بدله خارجة بن حذافة ، فلما علم بالخبر ، هتف من صميم قلبه : « أردت عمرا وأراد الله خارجة .. »

ودفن الجيران الولد القتيل ، واستقر والده في السجن..

(٥)

على شجر خابور الفرات قرب (قرقيسياء) كانت يمامتان تتناجيان بما يتناجى به الناس من خبر قصة الضيف والمضيف ، وقصة عدالة السماء :

قالت الاولى :

ان الله هو الغني ، والناس فقراء .
والله هو الرزاق العليم .
ورزقه مكتوب لكل ذي روح .
فليطلب المرء رزقه حلالا .

وقالت الثانية :

لا حارس كالاجل .
والله هو الرقيب الحسيب .
فاذا نام الخلق ، فالخالق لاينام .
ولن تموت نفس حتى تستوفي أجلها .

قالت الاولى :

احفظ الله يحفظك .
ومن يتق الله يجعل له من أمره مخرجا .
« وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما
ويستخرجا كنزهما » .
والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

وقالت الثانية :

الظلم لايدوم ، وان دام دمر •
والعدل يدوم ويزدهر •
والظلم ظلمات ، ومن بعض ظلماته السجون •
والعدل نور ، ومن بعض نوره راحة الضمير •

وردد الحيوان والجماد والانسان حكمة الباري وعدالة السماء ، واعتبر كل شيء الا الانسان ، انه كان ظلوما جهولا ••

اليمين على من أنكر

(١)

وقف أمام القاضي ، فأنكر أنه مدين بمبلغ خمسمائة وألف من الدنانير لورثة الحاج ابراهيم محمد ، فطلب منه القاضي أن يقسم بالقرآن الكريم ، بأن الحاج ابراهيم لم يدفع له في يوم من الايام هذا المبلغ ، وأنه ليس مدينا له ، فأقسم ثم غادر المحكمة بعد أن أفرج عنه القاضي ونطق بالحكم عليه بالبراءة .

ولم يكد يتخطى عتبة المحكمة الا وسقط على الارض ميتا ! ذلك ما حدث في عام ١٩٥٤ في مدينة ما من مدن العراق. ولكن القصة لاتبدأ هكذا ، فلنذكر القصة كما حدثت :

(٢)

كان الحاج ابراهيم محمد من التجار الكبار ، وكان لايرد طلب طالب ، ولايخيب رجاء قاصد .

وفي يوم من الأيام قصده السيد (...) في مكتبه الكائن في (خان الشط) المطل على نهر دجلة ، وعرض عليه أمره .

وقال السيد (...) للحاج ابراهيم : « انني جارك ، وقد كان ولدي من أصدقائك المقربين ، وحين حضرته الوفاة أوصاني أن ألجأ اليك اذا حزبني أمر أو ضايقتني أعباء الحياة .

« ان الزروع في هذه السنة كما تعلم لم تعط ثمن بذارها ، فقد أمحلت الارض وأنقطع المطر وساء الحال ، فلا أعرف كيف أدبر حالي .

« وكنت قد استقرضت مالا من المصرف ، فلا بد لي من دفع ديوني له والا افتضح أمري وشمت بي الاعداء ...

« واليوم أتيتك لتقرضني خمسمائة والفا من الدنانير ، لادفع الدين الذي في عنقي لمصرف الرافدين ، وأشتري البذار وأدبر حالي ، وموعدي معك لوفاء دينك علي في موسم حصاد الحنطة والشعير في العام المقبل » .

وقام الحاج ابراهيم الى خزانة نقوده في مكتبه ، وأخرج منها المبلغ ودفعه الى السيد (...) وسجل المبلغ في دفتر الحسابات .

وأبدى المدين شكره وأظهر أمتنانه ، وأصر على كتابة

سفتجة(١) ولكن الحاج ابراهيم قال له :« لاشكر على الواجب، وبيني وبينك الله ، فهو نعم الوكيل ونعم الشهيد » .

وبعد سنة تقريبا من هذا الحادث ، مات الحاج ابراهيم بالسكتة القلبية ، وترك زوجة وأربعة أطفال ، أكبرهم في الثالثة عشرة من عمره .

(٣)

وراجعت زوج الرجل دفاتر زوجها وسجلاته التجارية، وأعانها على ذلك أخوها المحامي ، فعرفت ما في بطون أوراقه بتفصيلات ما لزوجها من ديون على الناس .

ومرت الايام والشهور على موت زوجها ، فبعثت الى السيد (...) تطالبه بما لزوجها عليه من دين ، ولكن السيد (...) أنكر أنه مدين بشيء لزوجها ، وزعم أنه دفع ما كان عليه من دين الى زوجها ، وربما نسي زوجها أن يرقن قيد الدين في سجلاته .

وتسامع الناس بالحادث ، وكان بعضهم قد سمع بأن

---

(١) كمبيالة . قال الله تعالى : « اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه ... » ٢ : ٨٢ .

الحاج ابراهيم كان قد أقرض السيد (...) بعض المال ، فزعم للناس انه وفى للحاج ابراهيم دينه ، ولو كان مشغول الذمة لعثر ورثة الحاج ابراهيم على سند الدين في مخلفاته ...

وانقسم الناس في المحلة من الجيران الى قسمين : قسم يؤيد ورثة الحاج ابراهيم ويذكرون انه يقرض النقود حسبة الله بدون مستندا او سفتجة ، وقسم يؤيدون السيد (...) بانه ليس من المعقول أن يدفع الحاج ابراهيم مبلغا من النقود للسيد (...) بدون مستند أو سفتجة .

والتجأت زوج الحاج ابراهيم الى بعض أهل الخير في المحلة ليحملوا السيد (...) على تبديل موقفه ، ولكنه اعرض وأصر وتمادى واستكبر ، كأنه صخرة عاتية من صخور الجبال .

(٤)

وكما أن آخر الدواء الكي ، فان آخر مطاف المتنازعين المحاكم ...

ووكلت زوج الحاج ابراهيم أخاها المحامي ليعرض شكواها على المحاكم ...

وجاء يوم المحاكمة ، وحضر المتهم الى ساحة المحكمة .

وأترك الكلام الآن للحاكم الاستاذ (•••) الذي قص علي تفصيلات المحاكمة ، فكان مما قاله : « كنت في قرارة نفسي مقتنعا بأن السيد (•••) مدين للحاج ابراهيم بهذا المبلغ •

« ولكن لم يكن هنالك دليل مادي غير تسجيل هذا المبلغ بخط الحاج ابراهيم في سجل ديونه على الناس ، وهذا الدليل وحده لايكفي لاثبات التهمة •

« ولم ينكر السيد (•••) بأنه استقرض هذا المبلغ من الحاج ابراهيم ، ولكنه أفاد بأنه أعاد المبلغ الى صاحبه بعد سنة من استقراضه •

« وشهد أحد الرجال ، بأنه سمع السيد (•••) يثني على الحاج ابراهيم ، ويذكر أنه انتشله من وهدة الفقر والحرمان بأقراضه بعض المال حسبة لله ولكن الشاهد لم يتذكر مقدار المبلغ ولا وقت سماعه حديث السيد (•••) •

« كانت القضية كلها كريشة في مهب الريح ، فحاولت أن أجر المتهم الاعتراف بالدين ، لكنه كان يفلت من الاستجواب •

« ان المحاكم في هذه القضية ، تطبق المبدأ القضائي : البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر •••

« وقلت للمتهم : هل تقسم بالقرآن الكريم ، بأنك لست مدينا للحاج ابراهيم بهذا المبلغ ولا بغيره ، وانك دفعت ما كان

له عليك من دين ؟
« وقال المتهم : أقسم ... ثم أقسم
« ونطقت بالحكم : البراءة ...
« وخرج المتهم مرفوع الرأس شامخا من المحكمة ، وكان ذا هامة وقامة ، صحيح البدن قوي البنية ، سليما معافى وهو في ريعان الشباب ...
« وما كاد يغادر المحكمة ومعه المستمعون الا وسمعت ضجة خارج المحكمة ، فهرعت لاتبين جلية الامر ...
« وصعقت لانني وجدت المتهم الذي كان ماثلا أمامي قبل لحظات معدودات في أوج صحته ، وعنفوان شبابه ، وكمال رجولته ، ممتدا على الارض جاحظ العينين مفتوح الفم أصفر الوجه ، كأنه شجرة خبيثة « اجتثت من فوق الارض ما لها من قرار » ...
« وهتف الناس من حوله : لقد مات » .

(٥)

كانت زوج الحاج ابراهيم تسكن في دار قريبة من داري، وكانت لها صلة قربى بأهلي ...
واشتقت أن أسمع القصة منها ، فسألتها عن الخبر ، فكان مما قالته :

« كان المرحوم الحاج ابراهيم بارا بجيرانه خاصة وبالناس عامة ، وكان يقرض المحتاجين ويكتفي بتسجيل قرضة في سجل خاص ...

« وكنت ألومه على ذلك فيقول : المال مال الله ، وقد كنت فقيرا فأغناني ، وكنت يتيما فآواني ، فلن أقهر يتيما ولن أنهر سائلا ...

« وكان يختم كلامه كل مرة بقوله : يا ليت لي في كل قبر دينا ...»

« وشهدت محاكمة السيد (...) وأصغت الى أقواله ، وكنت لا أشك بأن الله يسمع ويرى .

« وحكم القاضي بالبراءة بعد أن أقسم المتهم اليمين ، فلما أقسم اليمين اقشعر بدني ، فقد كنت مؤمنة بأنه كاذب وأنه اجترأ على كتاب الله عز وجل ...

« وقلت أخاطب الله سبحانه وتعالى : انك تعلم السر وأخفى ، وانك علام الغيوب ، فان كان السيد (...) كاذبا في قسمه فاجعله عبرة للناس ... يا قوي يا جبار ...

« وخرج المتهم من المحكمة وأنا أنظر اليه ، ولكنه سقط ميتا على بعد خطوات من باب المحكمة ...»...

لقد نجا السيد (...) من حاكم من حكام الارض ،

ولكنه لم ينج من حاكم الارض والسموات، ولم يكن الصراع يدور بينه وبين ورثة الحاج ابراهيم ، بل كان الصراع يدور بينه وبين جبار السموات والارض ...

(٦)

وفي ليلة من ليالي الشتاء العاتية ، حين كان البرد قاسيا والمطر مدرارا وحين كان الناس يأوون الى مضاجعهم لايغادرونها ناعمين بالدفء والراحة .

في ذلك الوقت ، في ساعة متأخرة من الليل البهيم ، كان جرس دار الحاج ابراهيم يرن قويا متواصلا ...

وكان على الباب امرأة متشحة بالسواد ، يرافقها طفل في السادسة من عمره ...

وفتحت زوج الحاج ابراهيم الباب لترى من الطارق ، فوجدت زوج السيد (...) ومعها ولدها الوحيد ...

وقالت زوج السيد (...) للسيدة زوج الحاج ابراهيم: « لقد أنكر زوجي بأنه مدين للحاج ابراهيم ، ولكنني كنت أعرف بأنه كاذب ...

« ورجوت أن يسدد ما عليه من دين،وألححت فيرجائي وألحفت ، ولكنه ركب رأسه ، ومضى في غيه ...

« لقد دفع زوجي ثمن كذبه غالياً، وهذا هو المبلغ الذي كان مدينا به لزوجك » •

وألقت بكيس فيه خمسمائة وألف من الدنانير ، ثم عادت مسرعة أدراجها الى دارها ، ومن وراءها ابنها ••• قبل أن تسمع كلمة من زوج الحاج ابراهيم •••

وبقيت زوج الحاج ابراهيم على باب دارها تنظر شبحين يخبان حتى لفهما الظلام •

وآوت الى فراشها ، وهي تستمع الى هطول المطر وعويل الرياح الهوج •••

(٧)

وتذكرت قصة حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام رضي الله عنه :

قال عبدالله بن الزبير رضي الله عنه : جعل الزبير يوم (الجمل) يوصيني بدينه ويقول : ان عجزت عن شيء منه فاستعن عليه بمولاي • قال : فوالله مادريت ما أراد حتى قلت : يا أبت ! من مولاك ؟ قال : الله تعالى ••• فوالله ما وقعت في كربة من دينه الا قلت : يا مولى الزبير ! اقض عنه ، فيقضيه • وانما كان دينه الذي عليه ، ان الرجل كان يأتيه بالمال يستودعه اياه،

فيقول : لا ، ولكنه سلف ، فأني أخشى عليه من الضيعة . قال عبدالله : فحسبت ما عليه من الدين فوجدته ألفي ألف ومئة الف ، وقتل ولم يدع دينارا ولا درهما الا أرضين بعتهما وقضيت دينه ، فقال بنو الزبير : ميراثنا ؟! فقلت : والله لاأقسم بينكم حتى أنادي بالموسم أربع سنين : الا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه(١) . فلما انقضت أربع سنين قسم بينهم ، فنال كل وارث حقه كاملا ...» .

لقد قضى مولى الزبير عن الزبير دينه ...
كان واثقا من الله فلم يخيب الله ظنه به .
والله مولى الناس جميعا ، لا مولى الزبير وحده .

ولكن أكثر الناس ينقصهم الايمان المطلق والثقة المطلقة بالله تعالى ...

الله الذي لاينسى النملة في الصخرة وسط البحر المالح الاجاج ، فيرسل اليها رزقها من حيث لاتحتسب ، لا ينسى أرزاق عباده الاخرين .

وشتان بين الرزق الطيب الحلال ، وبين الرزق الخبيث

---

(١) الرياض النضرة (٢/٣٦٧) ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة دار التأليف القاهرة ـ ١٣٧٢ هـ .

أيها القطيع الهائم على وجهه في متاهات الكفر والضلال. الحرام .

ان الثقة بالله والايمان برسالات السماء ، هما الطريق للخير والسعادة والبركة .

ايمان كبعض ايمان الزبير ، وثقة كبعض ثقة الزبير ، وسيقضي عنكم مولاكم كل دين ، ويرفع عنكم كل كربة ، ويجعل من عسركم يسرا ... وتنهمر عليكم بركات الارض والسماء .

من هنا الطريق ...

« ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

الرصاصة العادلة

(١)

في أيام الصيف ، وعلى ساحل البحر ، تحدث مآس وأحداث تعمل عملها المدمر في تخريب البيوت ، وفي انهيار الاخلاق والفضيلة .

قبل خمسة أعوام ألحت عليه زوجه ، وطالبته بالسفر الى المصيف البحري : تستنشق نسيمه العليل ، وتستحم في أمواهه وتصارع أمواجه، وتخالط الغادين والرائحين عارية متهتكة متمتعة بحريتها الحمراء تقليدا للغربيات دون رادع أو دين .

وكان مما هو معروف مألوف .. !

تعرفت العائلة بعائلة أخرى ، وكان في العائلة شاب مفتول العضل ، جميل الطلعة ، طويل القامة ، ويملك سيارة فارهة ، ولا يملك رادعا ولا دينا .

وعرض الشاب خدماته وأريحيته من أجل الشيطان ، فكان وعد ولقاء ، وكان استحمام في البحر ، وكان غزل بين الشاب والزوجة ، وكان الرجل الزوج في شغل شاغل عن زوجه وولدها الطفل في رؤية لحوم البحر البشرية كاسية عارية ، وكان له موعد ولقاء حرام ..

(٢)

كان الشاب يتطوع كل يوم لنقل العائلة : الزوج وزوجه وطفلهما بسيارته صباحا ومساء الى البحر ، وكانوا يستحمون جميعا في مكان واحد . وكانت الزوجة لاتحسن السباحة ، فتطوع صاحبنا لتعليمها على السباحة . وكان زوجها يبتعد عنهما ليلاقي من يلاقي بعيدا عن أنظار زوجه ، وكان ينشر شباكه متصيدا أعراض الناس ، تاركا عرضه لذلك الشاب كما يترك الراعي الغنم للذئب .

وابتدأ الامر بين الزوجة والشاب اعجابا بالاريحية ، ثم تطور الامر الى الاعجاب بالجسد ، ونام الحارس فرتع اللص ، فكان لابد للنار أن تشتعل فتحرق الاخلاص الزوجي وتحرق الطهر والعفاف .

وكانت الزوجة تحب زوجها ولا تطيق عنه صبرا ، فأصبحت تكره لقاءه وتحسب الدقائق والساعات للقاء حبيبها الجديد .

وأراد الشاب أن يتخلص من الزوج نهائيا ، فبيت في نفسه أمرا ...

(٣)

أظهر اخلاصه وتفانيه للزوج ، وأبدى اعجابه بمواهبه ورجولته ، وكانت زوجه لاتنفك تطري شهامة الشاب وتحببه لزوجها ، فوثق به الزوج وسلمه مقاليد أمره كله .

وفي يوم من الايام تمارضت الزوجة ، فعكفت في شقتها ومعها طفلها ، فاستأذن الزوج زوجته أن يصاحب صديقه الشاب فجرا ليستحم في البحر .

وعاد الشاب وحده بعد ساعتين ليعلن للزوجة أن زوجها قد غرق في البحر ، وانه حاول انتشاله فباءت محاولاته بالاخفاق .

لقد كان البحر خاليا من الناس فجر ذلك اليوم ، وكان البحر مائجا صاخبا ، وكان الموج يرتفع كالجبال ويهبط كما

تهبط الشهب من السماء . وكان الزوج لايحسن السباحة ، ولكن الشاب استدرجه الى السباحة بعيدا عن الشاطىء ، ثم تركه طعمة للامواج يستغيث فلا من مجيب فابتلعته الامواج الى الابد .

(٤)

كانت الزوجة يتيمة لامعيل لها ، وكان الشاب وحيدا في شقته بعيدا عن أهله .

وعرض عليها الشاب بحنان ولهفة أن تشاركه شقته ومصيره ، وأبدى لها استعداده لاحتضان طفلها من أجلها ومن أجل حبها غير المقدس ، ووعدها بالزواج .

واستكانت الزوجة للشاب ، فآوت الى شقته واستقرت فيها ، وكان طفلها في الرابعة من عمره ، يظن أن الشاب أبوه فيناديه من كل قلبه : بابا .

وطالبته بالزواج فماطل أولا بلطف وتودد ، ثم بقسوة وعنف ، وبعد أشهر تبدل الشاب اللطيف الى صل خبيث ، فأظهر تذمره منها ومن طفلها ، وتعلق قلبه بغيرها من النساء ، فأصبح في شقته بعيدا بأحساسه عنها ، يأوي اليها في الهزيع الاخير من الليل .

وفي ضحى يوم من أيام الشتاء ، كان الشاب يتناول فطوره ، وكانت تلك الزوجة تعاتبه وتطالبه بالزواج بها ، فأظهر أنيابه السامة ، وكشف عن حقيقته التي كان يسترها من قبل ، وطالبها بالجلاء عن الشقة لانه اعتزم الزواج بغيرها والاستقرار .

وانهمرت دموعها غزيرة ، وذكرته بالماضي الحلو الجميل ، ولكنه كان كالصخرة الصماء قسوة وعنفا .

وكان الطفل البريء لايعرف للدموع معنى الدموع ، ولا يفهم ما يدور حوله من أحداث .

وتوسلت الزوجة الى الشاب طويلا بدموعها وبذكرياتها دون جدوى ...

وكان الطفل يلاعب مسدس الشاب الذي كان الى جانبه ، وكان الشاب في شغل شاغل عنه ، وكان يعلم يقينا أن المسدس خال من العتاد ... لانه كان قد أخرج منه عتاده بعد عودته الى شقته في الهزيع الاخير من ليلة أمس .

ولكنه كان ثملا لا يفرق بين النور والظلام ، بعيدا بعقله في تيار الخمر والرذيلة ...

وفجأة انطلقت رصاصة من مسدسه واستقرت في الجزء الاسفل من قلب الشاب ، فتلوى لحظات ثم سقط عن كرسيه فاقد الوعي .

في هذه اللحظات نطق الشاب بكلمات قليلة كانت آخر ما نطق بها في حياته ، وكان الجيران قد تجمعوا حوله فور سماع اطلاق النار ، فقال مخاطبا الزوجة : « لقد اغرقت زوجك في البحر ليصفو الجو لي معك وحدي » .

وجاء الطبيب على عجل ، فوجد ان امر الشاب قد انتهى، وأنه فارق الحياة .

طلقة القدر ، أطلقها بيد الطفل الصغير ، الذي لايعي ، وسيرها مباشرة الى قلب الشاب .

وما رمى الطفل ، ولكن الله رمى ...

وأسدل الستار على نهاية شاب مجرم ذهب ضحية أيام الصيف على ساحل البحر العباب ، فكانت قصته عبرة لكل منحرف .

لا حارس كالأجل

(١)

كان والدي عليه رحمة الله ، يحدثني عن طفل تسلل خلسة من أهله وارتقى سلالم منارة (الحدباء) في الموصل ، وهي منارة شاهقة الارتفاع ، تعد من مفاخر البناء الاسلامي في الموصل، ولشهرة هذه المنارة التي ترتفع في الجامع الكبير(١) ، أطلق اسمها على مدينة الموصل ، فسميت باسم هذه المنارة : الحدباء .

وحين استقر الطفل في المنارة ، صعد الى الحائط الدائري الذي يلف ذروة المنارة ، فزلت قدمه وسقط من عل على سرير من أسرة المقهى الموجود في أسفل قاعدة المنارة على الارض .

وأحدث سقوطه صوتا عاليا ، هرع على أثره صاحب المقهى ليرى ما حدث ، فهرب الطفل وهو يقول : « والله عمي ما على القسط »(٢) .

---

(١) الجامع النوري .
(٢) تعبير عامي من لهجة الموصل ، معناه : لم أفعل ذلك عن قصد وعمد .

ولم يكن في الطفل بأس ، وعاش بعدها ستين عاما ، مات بعدها على اثر زلة قدمه في بلاط داره !

(٢)

وفي يوم من الايام ، كنت اسوق سيارة عسكرية صغيرة في طريق جبلية بين قضاء عقرة ولواء الموصل .

وشرد فكري في أمر من أمور الحياة ، فانحرفت السيارة الى واد سحيق ، ثم انقلبت في حفرة صغيرة ملئت بمقدم السيارة فقط ، فأسرع الينا بعض الناس لنجدتنا ، ولم يصدقوا اننا نجونا من الموت الاكيد بفضل هذه الحفرة التي يسرها الله لنا ، وكأنها لم تكن في هذا المكان بهذا الوقت الا ليكتب الله سبحانه وتعالى لنا الحياة .

وفي يوم عام ١٩٥٢ ، كانت السيارة مسرعة بنا في منطقة راوندوز الجبلية ، وكان الطريق ملتويا في أرض جبلية وعرة ، وكان على يسارنا جبل شاهق وعلى يميننا واد سحيق .

وفجأة انقطع كابح السيارة ، ففقد السائق السيطرة عليها وأخذت تركض بسرعة جنونية .

واستسلمنا للاقدار حين انعطفت السيارة يمينا لتهوي الى

الوادي ، ولكنها اصطدمت بشجرة ضخمة ، وتوقفت عن المسير .

وخرجنا من السيارة ، ونحن نحمد الله على السلامة ، ولا نكاد نصدق بأننا على قيد الحياة .

(٣)

وفي عام ١٩٤٨ ، كنت ضابطا في الجيش العراقي المرابط في (جنين)(١) ، وكنت يومها ضابط ركن القوة العراقيــة المرابطة هنــا .

وكان من واجبي مرافقة ممثلي الهدنة التابعين لهيئة الامم المتحدة كلما حدثت مشاكل على الحدود .

وفي يوم من الايام رافقت ثلاثة ضباط من ممثلي الهدنــة الى منطقة (أم الفحم) بالقرب من قريتي عارة وعرعرة(٢) . وهي منطقة وعرة جدا .

وحين اقتربنا من حدود العدو الصهيوني ، نبهت ممثلي الهدنة عن ذلك ، وقلت لهم : « ان يهودا سيرموننا بالهاونات والرشاشات الثقيلة اذا اجتزنا الحدود » .

---

(١) مدينة في المثلث العربي من ارض فلسطين .

(٢) كانت هذه القرى تحت سيطرة الجيش العراقي عــام ١٩٤٨ ، فلما انسحب من فلسطين سلمــت الى العدو الصهيوني بموجب معاهدة رودس .

وأجاب أحدهم : « اننا لم نخش قنابل الالمان في الحرب العالمية الثانية ، أفنخشى قنابل يهود اليوم ؟!

ثم اننا أخبرنا الصهاينة قبل حضورنا الى منطقتكم ، فهم يعلمون بوجودنا ، لذلك فليس من المحتمل أن يقصفونا بالقنابل » .

وقلت لهم : « ان الصهاينة لا شرف لهم ، وهم سيرموننا حتما ، وسيعتبرون قتلنا نصرا لهم ، ثم يدعون بعد ذلك لاخوانكم من ممثلي الهدنة ، أن الرمي كان خطأ شخصيا وأنهم سيحققون في الامر ... ثم لا يفعلون شيئا » .

وأصر ممثلو الهدنة على التقدم عبر الحدود ، وخشيت ان انا تأخرت عنهم ، أن يصموا ضباط الجيش العراقي بالجبن ، فآثرت الموت على هذه الوصمة .

وفتح الصهاينة علينا نيرانهم المركزة ، فانبطح ممثلو الهدنة على الارض ، وآويت الى حفرة قريبة من مكاني ، ثم انبطحت فيها .

وانهمرت على المنطقة التي آوينا اليها القنابل بكميات ضخمة . فنهضت من حفرتي ، ولجأت الى حفرة تبعد عنها بما لا يزيد عن عشر أمتار .

ولم أكد أستقر في الحفرة الجديدة ، الا وتساقطت قنبلة هاون على حفرتي الاولى ...

وتوقف الرمي بعد ربع ساعة ، فحمدت الله على السلامة .

وقال ممثلو الهدنة الذين جرح أحدهم جرحا بليغا توفي على أثره بعد ساعات :

« حقا ان الصهاينة جبناء لا شرف لهم ولا ضمير » .

لماذا تركت حفرتي الاولى الى حفرتي الثانية ؟

لا أدري حتى اليوم ، وكأن يدا قوية سحبتني من الاولى الى الثانية ، فلم أستطع لها ردعا ولا مخالفة .

(٤)

ولعل ما حدث في بغداد قبل مدة من الزمن لرجل معروف جدا ، خير دليل على حراسة الاجل لكل حي من الاحياء .

هذا من أكبر رجال القضاء اليوم ، وقد كان قبل مـــدة

هذا الرجل معروف باستقامته وتدينه ، ومعروف بعلمه ، فهو من أكبر رجال القضاء اليوم ، وقد كان قبل مدة وزيرا للعدل .

وقد نكب قبل سنتين بابنه الشاب غرقا ، وكان ولده هذا أكبر أولاده ، وكان يكنى به ويناديه الناس : أبا فلان !

وكان هذا الرجل يقود سيارته بنفسه في ليلة من ليالـــي بغداد ، وكان يدلف بها ليلا على طريق جسر الصرافية ـ منطقة

السكك ألحديد مطار ألمثنى في جانب الكرخ .

وعلى هذه الطريق ، يوجد تقاطع بين خط السكك الحديد وبين الطريق الاعتيادية .

ولم يلاحظ الرجل وجود القطار متحركا على سكة الحديد، وكان يريد عبور تقاطع السكة بالطريق .

وحين كان يعبر التقاطع بسيارته ، لمح فجأة القطار على بعد خطوات منه ، فأراد العبور بسرعة خاطفة للتخلص من اصطدام القطار بسيارته ، ولكن السيارة توقفت عن الحركة ، فبقي ينتظر الاصطدام الوشيك وهو يقول : « أشهد ألا اله الله، وأشهد أن محمدا رسول الله » .

واصطدم القطار بسيارته ، وبعد مسيرة القطار مسافة مئة وخمسين مترا استطاع سائقه ايقاف حركة القطار . وهرع الناس الى السيارة وصاحبها ، فوجدوا صاحبها حيا لم يصب بأذى ، ووجدوا السيارة معطوبة عطبا طفيفا .

كيف حدث ذلك ؟!

اصطدمت دعامة القطار الامامية وفيها رأسان مدببأن من الحديد بزجاجتي السيارة للبابين الامامي والخلفي ، فنفذ رأسا الدعامة في الزجاجتين بعد تحطيمهما ، ورفعا السيارة أمام القطار .

واستمر القطار بحركته ، والسيارة مرفوعة عن الارض برأسي الدعامة الامامية للقطار الى مسافة مئة وخمسين مترا ، حتى استطاع سائق القطار ايقافه عن الحركة •

وحدثني الرجل عن أمره فقال : « لو أن السيارة تقدمت قيد أنملة الى الامام، أو تأخرت قيد أنملت الى الخلف، لاصطدم رأسا دعامة القطار ببدن السيارة الذي هو من الحديد، ولاصبحت السيارة أثرا بعد عين ، ولاصبحت معها •

» ولكن السيارة كانت في مكان كأنه أعد اعدادا دقيقا ، بحيث يصطدم راسا الدعامة الامامية للقطار بزجاجتي البابين الامامي والخلفي للسيارة ، تماما كما يدخل الخيط في سم الخياط •

« وحمل القطار سيارتي حتى استقر بعيدا عن مكان الاصدام ، فهرع الناس ألي ليروا ما حدث •

« وفتحوا أبواب السيارة وأخرجوني منها محمولا ، ثم أوقفوني قائما ، ثم حركوا يدي ورجلي وبقية أعضائي ، وهم يقولون : ألم تصب بأذى ؟!

« وأقول لهم : لا والله ••• لم أصب بشيء!!

« ويقولون : ذلك غير معقول •••

« وحملوني قسرا الى المستشفى ، وجاء الاطباء ، وفحصوا

كل أعضاء بدني ، وكان كل واحد منهم يهتف من صميم قلبه : الحمد لله !!

« وعدت الى داري بسيارتي التي لم تصب بأذى الا ماكان من تحطيم زجاجتي البابين الامامي والخلفي ...

« واليوم أتساءل مع الناس بكل مكان : أهذا ممكن ؟!.. أهذا يصير » ..

وقال له أحد الحاضرين : « لا حارس كالاجل ... » صدق رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ...

(٥)

وتذكرت خالد بن الوليد رضي الله عنه وهو على فراش الموت ، فقد قال : « ماكان في الارض من ليلة أحب الي من ليلة شديدة الجليد ، في سرية من المهاجرين ، أصبح بهم العدو ، فعليكم بالجهاد(١) » . ثم قال : «شهدت مئة زحف أو زهاءها وما في جسدي موضع شبر الا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ، ثم هأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ، فلا نامت أعين

(١) الاصابة في تمييز الصحابة (٢/٩٩) ـ ابن حجر العسقلاني ـ القاهرة ١٣٢٥ هـ .

الجبناء(٢) ٠

الايمان بالقضاء والقدر ، والايمان بأن النصر من عند الله ، والايمان بأن الحرب انما هي احدى الحسنيين : شهادة أو نصر ...

هذا الايمان هو الذي جعل العرب المسلمين سادة الدنيا وقادة العالم !

أنحن عرب ؟!.. أنحن مسلمون ...؟! واحسرتاه على ما فرطنا في جنب الله(١) !!...

---

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة (٢/٩٥) - عزالدين بن الاثير طهران ١٣٥٥ ٠ والاستيعاب في معرفة الاصحاب (٢/٤٢٠) - ابن عبدالبر - تحقيق علي محمد البجاري - القاهرة ٠ وانظر تفصيلات سيرة خالد ابن الوليد في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٧ - ٢١١) - وكتابنا : خالد بن الوليد المخزومي ٠

(١) كتبت بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، ونشرت في مجلة التمدن الاسلامي ٠

قضاء السماء

(١)

قبل ثلاثة أعوام ، وجدت طفلة في الرابعة من عمرها ، غارقة في مستودع المياه القذرة لدار من دور محلة (الصليخ) في بغـداد •

روعت بغداد لهذه المأساة ، وأصبحت حديث المجالس ، ونشرت الصحف والمجلات تفصيلاتها •

كانت الطفلة جميلة جدا ، بيضاء البشرة ذات شعر أصفر اللون جعد ، كأنها صورة من صور فينوس •

وكانت أمها معلمة في مدرسة ابتدائية ، وكان أبوها مديرا لاحدى الاعداديات ، ولم يكن في الدار غير خادم عمرها اثنتي عشرة سنة، تلاعبها حين تكون أمها بعيدة عن الدار في المدرسة• أو في السوق •

وكانت الطفلة وحيدة أبويها ، وكانت سلوتهما في هـذه الدنيا ، تملأ الدار بشرا ومرحا •

وعادت الام من مدرستها ظهرا ، فلم تستقبلها طفلتها المدللة بالصخب المعتاد ، فدلفت الى صحن الدار مسرعة ، فوجدت الخادم في المطبخ تنظف المواعين ، فسألتها عن طفلتها ، فزعمت أنها كانت معها قبل لحظات ..!

ودخلت الام غرف الدار ، وفتشت مسالكها ، فلم تجد أثرا لطفلتها ، فخرجت الى الشارع فاقدة الوعي تسأل الجيران عنها والغادين والرائحين من الناس دون جدوى .

وجاء أبوها ، فلم يترك محلا يشتبه بوجودها فيه الاوطرقه مستفيثا مستنجدا دون جدوى أيضا .

واتصل الوالدان بالشرطة ورجال الامن ، فقلبوا بغداد رأسا على عقب دون أن يجدوا للطفلة أثرا .

ومضت الساعات ، وتعاقبت الايام ، والطفلة مجهولة المكان والمصير .

(٢)

وهطلت الامطار غزيرة ، وتدفقت المياه من سطوح المنزل وشرفاته ، ففاض مستودع المياه القذرة .

وفتح عامل التنظيف غطاء المستودع ، فوجد الطفلة البريئة طافية فوق سطح الماء .

وأسرع رجال الامن الى المنزل ، وبدأوا التحقيق مجددا.

كان غطاء المستودع ثقيلا بدرجة لاتقوى الطفلة على رفعه، فأشارت أصابع الاتهام الى الخادم .

ولكن لماذا أقدمت الخادم على فعلتها الشنيعة ؟

قال والد الطفلة : ان الخادم هي كأبنته ، يرعاها كما يرعى ابنته سواء بسواء » .

وقالت أم الطفلة : « ان الخادم أمينة مستقيمة السيرة ، ولم تجد عليها مايمس سيرتها من قريب أو بعيد » .

وقال الجيران : « ان العائلة كانت ترعى الخادم رعاية مثالية ، تتناول الطعام مع العائلة يدا بيد ، وترتدي الثياب نفسها التي كانت ترتديها الطفلة ، وتنام في الغرفة ذاتها التي تأوي اليها الام والطفلة » .

وكانت الام تحرص على أن تجلس الخادم معها عندما تزور أو تزار .

وقال الوالدان : « انهما لايشكان في الخادم ، ولايمكن أن تقدم على اغراق الطفلة عمدا وعن سبق اصرار !! » .

(٣)

ولم يكتف رجال الامن بما سمعوا ، وأصروا على التعمق في التحقيق .

وسأل أحدهم الخادم : « لماذا أغرقت الطفلة ؟ » ، فانفجرت الخادم باكية منتحبة ، وأصرت على الانكار .

وكان الوالدان يحميان الخادم ويصران على براءتها .

وطلب رجال الامن أن يستصحبوا الخادم الى مقر الشرطة، ليدققوا في التحقيق .

وامتنعت الخادم ، ولاذت بأم الطفلة تتمسك بأهداب ثيابها . فرجت الام أن يتركوا الخادم وشأنها ، لانها تشك بنفسها ولاتشك بالخادم مطلقا .

وأيد الأب رجاء الام ، وقال : «انه يتنازل عن حقه الشخصي » .

ولكن رجال الامن أصروا على استصحاب الخادم الى مقرهم وقالوا : انكم اذا تنازلتم عن حقكم الشخصي ، فأن الحق العام لايمكن التنازل عنه .

وابتدأ الرد والبدل بين رجال الامن من جهة ، وبين الابوين من جهة اخرى ، واخيرا اضطر رجال الامن الى خطف الخادم خطفا وهي تصرخ بأعلى صوتها وتنوح •

(٤)

وفي مقر رجال الامن ، اعترفت الخادم بأن أباها قد أمرها بأغراق الطفلة في مستودع المياه القذرة •

وأنكر أبو الخادم أقوال ابنته ، وزعم أنها اعترفت خوفا من الضغط والتعذيب ، وأنها صغيرة لاتقدر خطورة أقوالها •

وبذل رجال الامن محاولات كثيرة ، واستعملوا كل أساليبهم في التحقيق دون أن يتزحزح أبو الخادم عن انكاره •

وعند عرض القضية على المحاكم ، حكم على الخادم بالسجن خمس سنوات تقضيها في سجن الاطفال غير البالغين ، حيث تقوم أخلاقها وتتعلم حرفة من الحرف •

وصدر الحكم ببراءة والدها ، فغادر التوقيف بعد قضاء شهرين فيه •

(٥)

وفي السجن اعترفت الخادم بكل شيء .

لقد قبض والدها مئة دينار من شابين شقيقين فصلا من الاعدادية لانهما مهملان في الدروس وغير مستقيمي السيرة .

وكان السبب في فصلهما من المدرسة والد الطفلة الغريق، الذي هو مدير تلك المدرسة .

لقد أراد والد الطفلة أن يطبق النظام نصا وروحا ، وكان يشعر شعورا كاملا بمسؤوليته أمام رجال التربية والتعليم وأمام امته ووطنه وعقيدته ، وكان يشعر قبل كل ذلك وفوق كل ذلك بمسؤوليته أمام الله سبحانه وتعالى ، لهذا أصر على فصل الشقيقين غير ملتفت الى رجاء الراجين والتماس الملتمسين .

وحين يئس الطالبان من عودتهما الى المدرسة ، أغريا والد الخادم بالمال وأمره أن يحرق قلب أبي الطفلة كما حرق قلبيهما .

وكان أبو الخادم فراشا (آذنا) في المدرسة نفسها، وكانا يعرفان أن ابنته تعمل في دار المدير ، وهي قادرة على القضاء على حياة ابنة المدير ، وقتلها يحرق قلب المدير أكثر مما يحرقه شيء آخر .

ولكن المحاكم قضت ببراءة أبي الخادم ، والمحاكم تحكم استنادا الى اقوال الشهود واعتراف المتهم •

وفي تلك القضية بالذات ، لم يكن هناك شهود ، والمتهم لايعترف بجريمته ، وكيف يعترف وهو يعرف ان الاعتراف يقوده الى المشنقة ؟

وقال قضاء الارض كلمته ، فلم تبق غير كلمة قضاء السماء •

وخرج ابو الخادم من السجن يستنشق عبير الحرية ، وفي أمله ان يتمتع بالمال الحرام •••

فما الذي حدث ؟

أقيم حفل عائلي فرحا بخروج والد الخادم من السجن، استمر حتى الهزيع الاخير من الليل •

وبددت العائلة في الحفل شطرا من المال طعاما وشرابا •

وفي صباح اليوم التالي ، سقط والد الخادم مريضا لايقوى على الحركة •

ولجأت الاسرة الى الاطباء ، يدفعون أجرة العيادة ، ويدفعون ثمن الدواء •

وطالت مدة مرض الرجل ، حتى امتدت الى أربعة أشهر، كانت كافية لتبديد المال الحرام ، فاضطرت العائلة الى الاقتراض•

وقصد والد الخادم المستشفى الحكومي الذي يعالج بالمجان ، لأنه بدد ماله ولم يعد قادرا على استدعاء الاطباء .

كان يشكو مرض السكر ، والضغط العالي ، والتدرن الرئوي ، ثم أصيب بالزكام الحاد اضافة الى كل تلك الامراض .

وارتفعت حرارته ، وانهارت قواه ، وكان كما يبدو في المستشفى شبحا من الاشباح .

وفي المستشفى انتقل من طبيب الى طبيب ، ومن ممرضة الى ممرضة ، محمولا على النقالة(١) .

وكان كل مريض يلقى عطفا خاصا من الناس ، ولكن هذا الرجل كان يلقى التشفي والاشمئزاز .

كانت الهمسات تصادفه في كل مكان ، وكان كل من يراه يشير اليه بأنه قاتل الطفلة، وأنه لايستحق العطف والحنان .

وفي المستشفى فحصه الطبيب المختص وأعطاه الدواء اللازم ، وكان من ضمن الدواء ابرة بنسلين.

وزرقته الممرضة بالابرة ، فغادر المستشفى مع زوجه الى الدار .

وفي الطريق شعر بخدر في جسمه ، وبارتباك نبضات قلبه ، ثم صرخ فجأة الطفلة ... الطفلة ...

---

(١) أداة لنقل المريض عليها محمولا على أكتاف الرجال .

وسألته زوجه : أية طفلة ؟
وقال الرجل : ألا ترينها ؟! انها تشد بكلتا يديها على عنقي .
ومال رأسه على كتف زوجه رويدا رويـدا واحتقنـت عيناه وخفت صوته الذي كان يردد : الطفلة ... الطفلة ...
ثم فارق الحياة ...

(٦)

الخادم لاتزال في السجن الاصلاحي لتقضي فيه عـامين آخرين .

ووالدها استقر في القبر مصحوبا باللعنات ...

وأمها في الدار حائرة باعالة طفل وثلاث بنات ...

وبناتها الثلاث في سن الزواج ، ولا أحد يتقدم لخطبتهن .

لقد علل أبو الخادم نفسه بنعمة المال الحرام ، ولكن الله كان له ولامثاله بالمرصاد .

واذا قصر قضاء الارض ، فلن يقصر قضاء السماء .

أفلا تذكرون ؟؟!!

الصبر . . طيب

(١)

تخرج من كلية الحقوق ، فمارس المحاماة ردحا من الزمن ، ثم تسلم وظيفة كتابية في احدى المحاكم ، وكانت وظيفته في قضاء من أقضية لواء بغداد .

وكانت المسافة بين مقر وظيفته في المحكمة ، وبين مدينة بغداد لاتزيد على الستين كيلومترا ، فكان يزور بغداد في عطلة نهاية الاسبوع : يتحرك من مكانه بعد انتهاء الدوام الرسمي من ظهر يوم الخميس ، فيصل الى بغداد بعد ساعة واحدة بالسيارة . فيقضي مساء الخميس ويوم الجمعة في بغداد ، ثم يعود الى عمله فجر يوم السبت من كل أسبوع .

وكان يمضي عطلته الاسبوعية بين أهله في (الكرادة الشرقية) احدى ضواحي مدينة بغداد ، يقضي لهم حوائجهم ، ويرتب لهم أمورهم ، ويشتري لهم ما يحتاجون اليه من غذاء

وكساء ، فاذا أكمل واجبات ربه ، انصرف الى واجبات قلبه .

كان شابا قويا وسيما ، ولم يكن متزوجا ولا ممن يردعهم دين أو خلق او تقليد عن ارتياد مزالق الشيطان في الملاهي والحانات والنوادي الليلية ، وكان له أصحاب من لداته يأمرونه بالمنكر وينهونه عن المعروف .

والخلاصة أنه كان شابا من شباب هذا العصر بما فيهم من شر كثير وخير قليل : عقله فارغ من تعاليم الدين ، وجيبه مليء بالمال ، وله من وقته فراغ ، وقد تعلم أن من متطلبات العصر التحرر من الفضيلة ، والتظاهر بالرذيلة ، والا كان متخلفا عن ركب الحضارة ، متمسكا بالتخلف والجمود .

وما دام شباب أوروبا مائعين مستهترين ، فلا بد من التميع والاستهتار .

(٢)

وقدم بغداد ذات خميس ، فقصد داره واستراح فيها ، قليلا ، ثم غادرها الى سوق (السراي) ، حيث بدأ جولته في السوق كعادته .

وفي سوق السراي مكتبات للوراقين ، ومحلات لبيع الاقمشة ، ورواد المكتبات اكثرهم من الرجال ، ورواد محلات الاقمشة أكثرهن من النساء ٠

والنساء الرائحات الغاديات في سوق السراي ، الكاسيات العاريات ومن المحتشمات ايضا ، من كل جنس ولون : يشترين الاقمشة ، ويتفرجن على الغادين والرائحين من جنسهن ومن الجنس الآخر ٠

وشارع النهر الذي يتصل بسوق السراي ، معرض في طوله وعرضه للنساء المتبرجات ، كأنهن من بنات الشياطين فتنة واغراء ، نزلن الارض ليكن أعوانا للشياطين وأحابيل لمكرهم وكأنهن لم يكتفين بسحر الشيطان ، فأضفن من عندهن سحرا جديدا يعجز عنه الشيطان ، ومكر ابليس ومكرن فكان مكرهن أعظم وأشد أثرا وتأثيرا ! ٠٠

وفي سوق السراي حيث تباع الكتب ، يقل رواد المكتبات عاما بعد عام ، وتكاد وجوه الذين يرتادونه من هواة الكتب لاتتبدل الا اذا مات أحدهم أو سافر الى بلد آخر أو سكن بلدة أخرى ٠

وفي سوق السراي حيث تباع الاقمشة ، يزداد الرواد عاما بعد عام من الجنسين اللطيف والخشن ، وتكاد وجوه الذين

يرتادونه تتبدل كل يوم أشخاصا وأزياء ، ولعل زي الخنافس الذي أخذ يظهر بالتدريج في السوق ليس آخر الازياء التي تهادى فيه متحدية كل عرف وكل خلق كريم .

وهكذا يتضاءل أثر العقل في قسم المكتبات من سوق السراي ، ويتضخم أثر العاطفة في قسم الاقمشة .

(٣)

وسار الشاب بخطوات وئيدة في سوق السراي ، يتلفت يمينا وشمالا ، ويحصي كل شاردة وواردة فيه ، فاذا وصل الى آخر السوق عاد يمشي الهوينا الى أوله .

ولمح امرأتين تحدثان صاحب حانوت من حوانيت الاقمشة ، وهما يضاحكان البائع ويناقشانه الحساب نقاشا باسما .

وأقبل يسأل البائع عن قماش ما ، وكل حواسه آذان صاغية الى أحاديث المرأتين الجميلتين .

وأقبلت احداهن عليه ترشده الى أحسن أنواع الاقمشة ، فأخبرها بأنه يريد أن يشتري هذا القماش لاجمل مخلوقة رآها في حياته ، وأنه أحبها لاول نظرة ...

واشترى القماش ودفع ثمنه ، ثم طلب تغليفه وقدمه هاشا باشا الى تلك المرأة ، وهو يقول : أنت التي أحببتها لاول نظرة ... وأنت ...

وشكرته المرأة ، ثم سارت هي وصاحبتها ، وأومأت اليه أن يسير في أثرهما ، حتى دخلتا دارا من دور محلة (العاقولية) ، فالتفتت اليه المرأة وودعته بابتسامة مشرقة وأشارت اليه بالانتظار .

وانتظر قليلا بالقرب من الدار ، حتى خرجت اليه وهمست في أذنه : انها ستنتظره في هذه الدار ظهر يوم غد الجمعة .

ثم عادت أدراجها من حيث أتت ، وغادر صاحبنا مكانه وهو يهنىء نفسه على هذا الصيد الثمين ..

وعاد الى بيته مبكرا ، وهو منشرح الصدر باسم الثغر ، فاستبشر أهله بمقدمه المبكر خلاف عادته ، اذ كان يسهر ليلة الجمعة حتى الهزيع الاخير من الليل .

وآوى الى فراشه مبكرا ، بعد أن ترك أثرا محمودا في نفوس أهله ، فقد كان لطيفا معهم ، كما أغدق عليهم الوعود المعسولة .

وقال أبوه لامه وهو يحدثها عن أمانيه في ابنها الشاب : «الحمد لله .. يبدو أنه صحا من سكرته وأذعن للحق بعد امتناع ، ولا بد لنا من الاستمرار على تشجيعه وحثه على الزواج »...

وذابت الام رقة ، لانها كانت تحلم بمستقبل سعيد ..

(٤)

وداعبت صاحبنا الافكار والاماني في فراشه ، وصاحب دقائق الليل البهيم يعدها عدا . ولم يزر الكرى عينيه ، فلما سمع صوت أقدام في صحن المنزل تقترب رويدا رويدا، حتى أشرقت الشمس ترك فراشه ، وملأ الدار غناء ونشيدا ومداعبات .

ولم يدر كيف يقضي الوقت مابين صباح الجمعة وظهرها، وكان في كل لحظة يحملق في ساعته يستعجلها الحركة .

وقبل ساعة من حلول الموعد المرتقب ، ارتدى أفخر ثيابه، وأطال الوقوف أمام المرآة ينظم شعره ويهندم مظهره ، ثم تعطر بأفخم ما عنده من عطور ، وكأنه عروس تزف الى زوجها ، فلما اطمأن الى مظهره الرائع غادر داره ميمما شطر دار حبيبته في

محلة العاقولية •

ووجد باب الدار مفتوحا ، فدخل الدار وجال في أنحائها، فلم يجد أحدا • وعندما نزل السرداب وجد احدى المرأتين اللتين رآهما في سوق السراي نائمة على سريرها الفخم ، مرتدية غلالة(١) من اللاذ(٢) تظهر من مفاتنها أكثر مما تخفي •

لم تكن تلك المرأة النائمة هي التي كلمته أمس ، ولكنه قال لنفسه : من يدري ؟! لعلهما قد اتفقتا على ما حدث •• ولعلها في مكان آخر من هذه الدار •••

وجلس صاحبنا مبهورا بجمال المرأة النائمة ، ولعل هذا النوم قد زادها فتنة وجمالا • واذا كانت صاحبة الجمال نائمة ، فان جمالها يقظ لا ينام •

وبينما كان صاحبنا مبهورا بالجمال الحالم ، يحدث نفسه ويمنيها وتمنيه ، يعيش لحظاته السعيدة في نشوة وحبور ، اذ رأى رجلا مفتول العضلات طوالا شامخا يقف على رأسه في السرداب •

---

(١) الغلالة : ثوب رقيق يلبس تحت الدثار • (ج) : غلائل•

(٢) اللاذ : ثياب حرير تنسج بالصين ، واحدتها : لاذة •

وطارت نشوة صاحبنا فجأة ، وجاءت الصحوة ...

(٥)

وأرتبك صاحبنا ، وأخذت أنفاسه تلهث بسرعة ، وأخذ قلبه يدق بسرعة أيضا .

وكاد يفرقد صوابه ، ويخر مغشيا عليه ، ولكن الرجل القادم قبل لحظة بادره بالتحية ، ورحب بـه أجمـل ترحيب ، أذهبت عنه بعض ما يعانيه .

وفي رفق ودماثة دعاه الرجل الى مصاحبته الى غرفتـه الخاصة في الدار ، وفي تلك الغرفة أعاد الرجل تحياته وترحيبه، وحدثه حديثا قصيرا أذهب عنه الروع كله ، وجعله يطمئن على مصيره كل الاطمئنان .

وتركه الرجل في الغرفة ، وقصد زوجه في السرداب ، ثم أيقظها وطلب اليها أن تحضر الطعام .

وتناولا طعاما شهيا ، تخللته أحاديث طلية شهية ، ثـم تناولا الفاكهة والحلوى والشاى .

وسأل الرجل صاحبنا : أتحسن لعـب النرد ؟ ثم جـاء

بالنرد وأخذا يلعبان في حماسة شديدة وشوق ، حتى سمعا المؤذن ينادي لصلاة المغرب .

واستمرا في اللعب مدة أخرى ، حتى مضت ساعتان من الليل ، فاستأذن الرجل ، وقصد غرفة مجاورة ، وعاد الى صاحبنا يحمل مسدسا فيه سبع طلقات كافية لنقل سبعة أحياء الى الدار الآخرة ...!

(٦)

كان صاحب الدار موظفا كبيرا ، وكان معروفا ببعد نظره ورجاحة عقله واتزانه وتمسكه بالخلق القويم .

وكان موضع ثقة معارفه من موظفين وغير موظفين ، وكان يملأ الأعين قدرا وجلالا .

وكان يعرف زوجه معرفة عملية ، فقد عاشا معا تحت سقف واحد سبع عشرة سنة ، لم يعكر صفوها خلاف أو نزاع .

ولم يكن صاحبنا يعرف الرجل ومكانته ولا منزلته الاجتماعية ، فقد كانا من جيلين متباعدين ، وكان من محلة (الكرادة الشرقية) البعيدة عن العاقولية .

ووضع الرجل بهدوء مسدسه على المنضدة ، ورفع النرد وألقاه على الاريكة المجاورة ، وكان هادئا كل الهدوء ، متزنا كل الاتزان ، لم تفارق وجهه ابتسامته الحلوة ، كأن كل ماحوله اعتيادي لا غبار عليه .

وبدا على صاحبنا الاستغراب والعجب ، فهو يرى المسدس أمامه على المنضدة ، ولكنه يجد الرجل الحصيف هادئا باسما .

ومرت لحظات على صاحبنا كأنها سنوات ، لا يعرف مايفعل وكيف يتصرف .

وساد الصمت الثقيل جو الغرفة ، فأراد صاحبنا أن يقول شيئا ، ولكن لسانه لم يسعفه بكلمة واحدة .

لقد تبلد دماغه ، ونسي لغته ، وخارت قواه ، وأصبح يرتعش كأنه يعاني بردا شديدا على الرغم من أنه في فصل الصيف الجهنمي ـ صيف بغداد .

(٧)

وقطع الرجل الصمت الثقيل بقوله : « ذهب وقت الراحة، وجاء وقت الجد ... لن ينقذك مما أنت فيه غير الصدق ، فما الذي جاء بك الى هذه الدار ؟ » .

ولوح الرجل بمسدسه اشارة الى نهاية صاحبنا المرتقبة..
انه الموت رميا بالرصاص !

وتلعثم صاحبنا ، وبلع ريقه مرات ، ثم تماسك وقص قصته كاملة ، وصاحب الدار يصغي اليه بانتباه شديد .

ونادى الرجل زوجه ، فجاءت تمشي على استحياء ، فسألها : أين كنت أمس ؟

وحدثته بأنها كانت في سوق السراي مع فلانة زوج أحد موظفيه ، وأنها اشترت أقمشة وعادت الى دارها .

واستمع الرجل الى زوجه ، ثم طلب اليها أن تهيء نفسها لزيارة خاطفة طارئة لصاحبتها بالامس .

(٨)

وقصد الرجل تلك الدار ، ومعه زوجه وصاحبنا فاستقبلهم الزوج بترحاب مشوب بالاستغراب .

وبعد السلام والكلام ، اطلع على الاقمشة التي اشترتها صديقة زوجه ، وعرف كل شيء .

وغادر الرجل تلك الدار ، وفي الطريق سأل صاحبنا عن

مكان داره ، وأبى الا أن يرافقه بسيارته اليها •

وعلى باب دار صاحبنا،انكب على يد الرجل يلثمها وكأنه في حلم مرعب طويل •

وسأل صاحبنا الرجل أن ينصحه ، فقال له : « لا تعد لمثلها أبدا ••• من تعقب عورات الناس تعقب الله عورته ، ومن تعقب الله عورته فضحه ولو كان في جوف رحم ••••» •

وفي طريق عودته الى داره ، قص قصة صاحبنا على زوجه، وكان فكرها خاليا من كل شيء •

وتعلم صاحبنا الشاب درسه •

كان أبواه الصالحان يدعوان الله في أعقاب كل صلاة : أن يهدي ولدهما الى طريق الحق والصلاح •

واستجاب الله سبحانه وتعالى دعواتهما بهذه الصورة وبهذا الشكل الغريب •

وحين استقر صاحبنا في داره بين أبويه ، قال لهما : «لابد لي من الزواج العاجل ، فلم أعد أطيق حال العزوبة

والتشرد وعدم الاستقرار » •

وفتح الابوان فاهما استغرابا وقالا : كيف حدثت المعجزة؟!

وفي عطلة الاسبوع القادمة ، اتصل صاحبنا بالرجل صاحب الدار ، وسأله ان يعينه على اختيار زوج له ، واخبره بانه ابوه بعد أبيه •

وابتسم الرجل ابتسامة عريضة ، ودعاه الى تناول الغداء في داره ظهر يوم الجمعة غدا •

وفي وقت الغداء ، وجد صاحبنا معه على منضدة الغداء شابة ذات جمال واعتدال •

ووجد تلك الشابة تخاطب الرجل : بابا !!

وقال صاحبنا للرجل : وجدتها !

وقال الرجل : هي لك •••!

وتزوجا بعد اسبوع ، فوجد زوجه خير الازواج •

ولا يزال صاحبنا في رعاية الرجل الذي أصبح عمه ، وقد أصبح ابنه بعد ابنه •

الصبر طيب••• والعجلة من الشيطان •

العقيد . . .

(١)

اضطرتني ظروفي الصحية على دخول أحد المستشفيات في بيروت لاجراء الفحوص الطبية خلال صيف سنة ١٩٧٢ .

وقد حرصت على كتمان أمر استشفائي ، ولكن الاخبار السيئة لا تلبث أن تنتشر بسرعه ، أما الاخبار الحسنة فلا تنتشر الا بصعوبة .

وعادني قسم من أصدقائي معاتبين ، وكان معهم هدايا تقدم عادة للمرضى ، كالورد والحلوى .

وكان جيراني من المرضى قسم من الضباط المتقاعدين وغير المتقاعدين ، فآثرت أن أتعرف بهم وأزورهم وأواسيهم ، وكان سبيلي الى ذلك تقديم قسم مما كان لدي من حلوى وزهور

اليهم ، وتقديم البقية من الهدايا الى المرضين ، ومع كل هدية كلمة لطيفة أتمنى لهم الشفاء العاجل وأعدهم بزيارة قريبة .

وحرصت أن أبعث أكبر باقة من باقات الزهور الى ضابط لا ينام الليل ولا ينيم أحدا ، وحين سألتني الممرضة : « ألك معرفة سابقة به » ، قلت : « لا ، ولكنه لا ينام الليل ولا يتركني أنام ، فلعله يحن على نفسه ويرفق بي بعد استلام هديتي ! ».

قالت الممرضة : « هيهات ... ! » ، وعلمت منها أنه في المستشفى منذ شهور ، وهو زبون دائمي للمستشفى ، لا يخرج منه أياما ليمكث بين أهله ، الا ويعود اليه شهورا ليمكث فيه .

وقالت : « ولكن الظاهر أنه سينتهي قريبا فيريح ويستريح » .

(٢)

وزرت العقيد المريض ، وكان يسمي نفسه : (الكولونيل)، وكان أهله يسمونه : (الكولونيل) ، وكان الاطباء والممرضون والممرضات يسمونه : (الكولونيل) !

كان ضابطا قديما ، عمل في الشرطة الفرنسية ، يوم كان الفرنسيون يحتلون لبنان ، ولم تكن المصطلحات العسكرية

قد عربت ، وكانت المصطلحات الفرنسية هي السائدة ، وكانت المصطلحات العربية هي المسودة •

كان عقله حاضرا ، وكان منطقه سليما ، وكانت ذاكرته واعية ، وكان قلبه ينبض ، وهذا كل ما بقي له في الحياة •

أمراضه التي ابتلى بها كثيرة : الضغط ، والسكر ، وتصلب الشرايين ، وتضخم القلب ، وتلف الكبد والكلى ، وتهري لحم الرجلين والجسم ••الخ •••

وكان يصحو نهارا ، حتى ليخيل اليك أنه معافى ، ولكنه كان ينهار ليلا ، حتى ليخيل اليك أنه لا يعيش ساعات الليل •

وكان في الليل يصرخ من الالم تارة ، ويصرخ طالبا أحد الممرضين أو الممرضات تارة أخرى ، وكان يستعمل سلاحين في صراخه : صوته ، والجرس الكهربائي •

فاذا جاء الممرض أو الممرضة ، لم يجدوا عنده مطلبا ، فيعودون من حيث أتوا ، ولكن لا يكادون يصلون الى مكانهم الا ويستدعيهم العقيد ثانية وثالثة ورابعة •• وهكذا حتى تشرق الشمس •

وكان اذا خفت صوته ، يستعمل الجرس الكهربائي ،

فيضمه في جيبه ضاغطا على زره بالحاح شديد ، وتبقى يده على زر الجرس حتى بعد قدوم الممرضة أو الممرض •

كان يريد أن تبقى الممرضة معه الليل كله ، وكان يريد أن يبقى الممرض معه الليل كله ، فاذا بقيا تلبية لطلبه نسي بعد لحظات وجودهما في غرفته ، وانطلق ينادي وانطلق جرسه يرن •

(٣)

وحين زرته أجهش بالبكاء وحدثني بقصته فقال : كنت في شرطة الفرنسيين ، وكنت برتبة كولونيل ، أقود الشرطة ، المحلية ، وكانت بيروت تخافني ، وكان اسمي يخيف أشجع الشجعان •

وكان الفرنسيون يعتمدون علي ، وكنت أخلص لهم كل الاخلاص ، وكنت أؤدي واجبي على أحسن مايرام •

« فاذا عجز الفرنسيون عن أكتشاف جريمة من الجرائم ، احضروا المتهم الي ، فكنت أستخلص منه الاعترافات بالقوة !

« كنت لا أرحم أحدا ، وكنت أمارس انواع التعذيب ، وكان المجرمون ينهارون فيعترفون بما اريد أو يريد الفرنسيون ،

يساقون الى المحاكم لينالوا ما يستحقونه من عقاب » •

ومضى يسرد على مسمعي أربعة وثمانين نوعا من أنواع التعذيب كان يمارسها مع المتهمين ، فاقشعر بدني من هول سرده وتعذيبه •

ثم قال : « وما أعانيه اليوم عذاب من الله ، فقد سقت الى المحاكم كثيرا من الابرياء ، وعذبت كثيرا من الصالحين ، ارضاء لاسيادي الفرنسيين » •

مضى الفرنسيون الى غير رجعة ، وبقي العقيد تلاحقه اللعنات •

حتى زوجه وأولاده وذوي قرباه ، لا يحبونه ويتمنون على الله أن يموت ، لانه يعذبهم بصراخه وزعيقه •

ولكنه يعذب نفسه أكثر مما يعذب الاخرين •

رحل أسياده وبقي مكروها من الناس ، مكروها من أهله •

كان يعذب ضحاياه في الليل ، ويعذبه الله اليوم في الليل أيضا .

وكانت أعضاء المعذبين تتساقط من تعذيبه ، واليوم تتساقط أعضاؤه عضوا عضوا .

أبقى الله لسانه ، ليحدث الناس عن أعماله الاجرامية .

وأبقى ذاكرته واعية ، ليعدد على الناس ما اقترف من آثام .

وأبقى عقله حاضرا ، ليتذكر ويندم ، ولات ساعة مندم .

وأبقى قلبه ينبض ، حتى يتحمل عذاب الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأقسى .

هل يعتبر الناس ؟

وصدق الله العظيم : (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، وتبين لكم كيف فعلنا بهم ، وضربنا لكم الأمثال).

الخاتمة

- أحب أن أسأل القارىء الكريم ، بعد أن قرأ قصص عدالة السماء هل يمكن أن يحدث كل ما حدث صدفة ؟

- ان الذي لا يخاطب نفسه ، لا بد من ان يعترف بأن الله سبحانه وتعالى بالمرصاد ، وقد يمهل ولكن لا يهمل .

- والسؤال هو الآن : لماذا لا نعود الى الله تائبين توبة نصوحا ليبدل حالنا من حال الى حال .

- لقد أعزنا الله بالاسلام ، ولن نعز بغيره ، وحين تركنا ديننا وراءنا ظهريا ، تداعت علينا الامم ـ حتى العدو الصهيوني استهان بنا ، وأصبح له كيان ودولة على حسابنا .

- والنداء الذي أوجهه للمؤلفين ، أن يحرصوا على أخلاق أبنائنا ، وبناتنا ، وألا يكتبوا ما يحطم تلك الاخلاق .

- وستلعن الاجيال القادمة ، كل مؤلف اتخذ العلم(تجارة) فقذف الى أسواق الكتب مؤلفات أضرت بالخلق الكريم ، وألحقت بالفضيلة أبلغ الاضرار .

- والحمد لله كثيرا ، وصلى الله على سيدي ومولاي رسول الله ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

الفهرست



رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ١٤٠٥ لسنة ١٩٧٨

كمية الطبع ١٠٠٠٠ نسخة

